طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــدد 87

01 أيار 2023

العروبة
والمشروع العثماني الجديد

نحو مشروع للنّهوض القومي

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للاتحة القومي العربي
عـــ 84 ـــدد
01 تشرين الثاني 2022

محتويات العـــ87ـــدد من مجلة طلقة تنوير:

الصفحة

- تركيا... أعلى درجات الميكافيلية/ كريمة الروبي 01
- في الترك والطورانية والعِلم المزيف/ إبراهيم علوش..... 03
- العثمانيون الجدد/ بشار شخاترة..... 12
- لماذا علينا كعرب دعم أردوغان في الانتخابات التركية؟ / نسرين الصغير..... 17
- من أين جاء المصريون القدماء؟ وهل مصر «سوداء»؟ / فارس سعادة..... 21
- التعريف التأريخي للقومية العربية عند د. عبد العزيز الدوري / إبراهيم حرشاوي..... 26
- سلسلة مقتطفات الفكر القومي: دراسة التاريخ العربي/ عبد العزيز الدوري..... 33
- الصفحة الثقافية: كيف يتم العبث بالتراث السينمائي الأمريكي؟ / باسل الخطيب..... 40
- قصيدة العدد: قصيدة الشهداء للشاعر القروي (رشيد سليم الخوري)..... 44
- كاريكاتور العدد: أردوغان وميليشياته 46

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 87
01 أيار 2023

تركيا... أعلى درجات الميكافيلية

كريمة الروبي

إن أردت أن تمارس السرقة والنهب والقتل، وأن تنال، رغم ذلك، هتاف الجماهير لك بالصلاح والتقوى والمثل العليا، فعليك بتتبع السياسة التركية في التعامل مع القضايا المختلفة. فتركيا التي احتلت وسرقت وتسببت في تخلف الأمة لعقود، ما زال يراها البعض دولة الخلافة التي يتآمر عليها الغرب لإسقاطها.

في أمة تخلفت قروناً بسبب الاحتلال العثماني الذي كان أول ما فعله - بعد قتل الآلاف وحرق المدن - أن قام بتجميع كل أرباب الحرف وشحنهم إلى إسطنبول لتفريغ الدول من مهارات أبنائها وتضييع فرصة الاستفادة من التراكم الحضاري لتلك الدول.

في أمة زرع فيها الغرب كياناً استعمارياً (الكيان الصهيوني) لحبس تقدمها والوقوف ضد أي محاولة لنهضتها بمساعدة السلطان العثماني (عبد الحميد الثاني)، الذي قام اليهود في عهده بشراء الأراضي وتأسيس المستعمرات في فلسطين، والذي فتح في ظله باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فزادت أعدادهم من سبعة آلاف إلى سبعين ألفاً شكلوا نواةً للكيان الأكثر عنصرية في التاريخ.

في أمة وقف الأتراك في الخمسينيات ضد حركات تحررها، وتحالفوا مع عدوها لإيقاف تقدمها، وقادوا حلف بغداد نيابة عن الغرب، بحجة وقف المد الشيوعي للمنطقة، لولا وجود قائد بحجم جمال عبد الناصر وعى لخطورة هذا الحلف ورفض الانضمام إليه قائلاً لوزير الخارجية الأمريكية جون فوستر دالاس: «إن العرب لا يرون أمامهم خطراً على أمنهم، غير خطر الاستعمار، الذي سيطر على أراضيهم، منذ القرن التاسع عشر وقبله. وفي حالة مصر، فإن الاستعمار البريطاني، فرض سيطرته المطلقة، لأكثر من سبعين عاماً؛ وليس من المعقول، أن نقفز، فجأة، فنقول لشعبنا إننا اكتشفنا له عدواً جديداً».

في أمة يعيث فيها الأتراك اليوم فساداً وقتلاً ونهباً، فيتآمرون على سورية، ويسرقون أرضها ومصانعها ونفطها، ويسعون لتقسيمها، ويقتلون أبناءها، ويتقاسمون النفوذ والسرقة في ليبيا، ويتمددون في شمال العراق، ويتآمرون على مصر، ويدعمون جماعة الأخوان الإرهابية، ويحتضنون قادتها، وتبث القنوات المعادية لمصر من أراضيهم لضرب استقرارها.

دولة مارست، وما زالت تمارس، النهب والسرقة والقتل، ورغم ذلك كله يتمنى البعض ممن نهبت أوطانهم وقُتِل أهلهم أن تعود لتحكمهم وتتحكم في مصائرهم... هي الخلطة التي نجحت تركيا في صنعها عن طريق الإيحاء للجهلاء بأنها تمثل دولة الخلافة وأن كل من يعاديها معادٍ للإسلام، حتى وإن كانت سياستها لا تمت للإسلام أو لأي دين بصلة. فهي بارعة حقاً في التنقل بين المواقف المختلفة بل والمتناقضة، فهي تدعي الانتصار للقضية الفلسطينية والنضال من أجل القدس حين تخاطب الجمهور العربي والإسلامي، ولكنها تفخر بعمق علاقتها مع الكيان الصهيوني وحجم التبادل التجاري والتعاون معه في المجالات المختلفة حين تخاطب الجمهور الغربي.

دولة عضو في حلف الناتو، وهو الحلف الغربي المعادي للعرب، والمدافع عن الإمبريالية التي تقتل وتنهب الدول وتسعى للسيطرة على ثرواتها، دولةٌ تعادي العرب والمسلمين، وفي ذات الوقت تريد أن تقود العرب والمسلمين.

البعض يصف تلك السياسة بأنها براجماتية، بالتأكيد هي ليست كذلك، كما أنها ليست مجرد سياسة الكيل بمكيالين التي يتبعها الغرب عندما يتغاضى عن حقوق الإنسان حين يكون الأمر في مصلحته، كما يفعل في حالة الاعتداءات الصهيونية على الدول العربية، والتي تحدث على مرأى ومسمع العالم كله، ولكنه يتشدق بحقوق الإنسان حين يتوافق ذلك مع مصالحه أو حين يتآمر لإسقاط الدول، رغم ذلك، فإن السياسة التركية هي أسوأ درجات الميكافيلية التي هي مرادف لكلمة (الفهلوة) باللهجة الدارجة المصرية.

قد تلجأ الدول للمناورة أحياناً، ولكن تظل السياسة العامة للدولة واضحة (إما مع التطبيع أو ضده مثلاً). أما ما تفعله تركيا فلا صلة له بالمناورة بل بالنصب السياسي، ويمكن أن نستحدث مصطلح جديد يعبر عن النصب السياسي والفهلوة التي تمارسها تركيا ونطلق عليه «الأردوغانية»، نسبة إلى ممثل النموذج الأبرز لتلك السياسة رجب طيب أردوغان.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 87
01 أيار 2023

في الترك والطورانية والعِلم المزيف

إبراهيم علوش

يعود أقدم نقش معروف للغة التركية القديمة، الجذر الأقرب للهجات التركية الوسطى والحديثة، إلى القرن الثامن الميلادي في وادي أرخون وسط منغوليا. نُحِتَ ذلك النقش بالأبجدية التركية القديمة، المشتقة من الأبجدية الصغدية، وهي أبجدية إيرانية قديمة ازدهرت يوماً في أوزبكستان التي أصبحت تركية لاحقاً مع بقية آسيا الوسطى، وهي مشتقة بدورها من الكتابة الآرامية، المشتقة من الكتابة الفينيقية، المشتقة من الكتابة السينائية (كما أظهرت في العدد 84 من «طلقة تنوير»، في سياق الحديث عن أصل الخط العربي).

وضِعت نقوش أرخون في منغوليا بالتركية والصينية على شرف أميرين تركيين. وهي تروي أساطير الترك القدامى وعصرهم الذهبي المزعوم، وصراعهم مع الصينين، وكيف أخضعتهم أسرة تانغ الصينية، وكيف حررهم القائد ألتريش قاغان الذي أسس الدولة التركية الثانية نهاية القرن السابع الميلادي، عام 682 م. تحديداً، وكان وثنياً.

أما الدولة التركية الأولى فامتدت من الهضبة المنغولية إلى بحر قزوين، عبر ما يعرف اليوم بآسيا الوسطى، في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي حتى بداية القرن السابع، 552م603- م.، وحكمت بصفتها دولة قومية تركية، مدركة لذاتها تركياً، انقسمت فيما بعد إلى شرقية وغربية عام 581 م.

كان الأتراك وقتها يدينون بالديانة «التنغرية» المرتبطة عضوياً بالجغرافيا السياسية لوادي أرخون في وسط منغوليا، على ضفاف نهر أرخون، كنقطة مرجعية للعنصر التركي. فالجبال عموماً تعد مقدسةً في العقيدة التنغرية باعتبارها محور العالم، وكان الأقدس بينها غابة أو جبل «أوتْكن» في وادي أرخون في منغوليا حيث عاصمة الخاقانية التركية الأولى. وبحسب التنغرية، كانت تُبث قوة خاصة مِن جبل «أوتكن» بالذات يسميها الترك «قوت» (قوة؟) تمنح الخاقان (أي حاكم الترك) حقاً إلهياً في حكم القبائل التركية. لذلك، كانت السيطرة على وادي أرخون ذات أهمية معنوية خاصة بالنسبة إلى كل دولة تركية.

نستنتج مما سبق ما يلي:

1) أن الترك كان لديهم حس قومي متبلور، شُحِذ في مواجهة الصينيين خصوصاً، منذ القرن السادس الميلادي على الأقل.

2) أن الأسطورة لعبت دوراً محورياً في بلورة الوعي القومي التركي، وسنرى فيما يلي أن الأسطورة ما برحت تلعب الدور ذاته في الخطاب القومي الطوراني المعاصر.

3) أن تركيا الأولى نشأت تاريخياً في منغوليا، وأن الأتراك جغرافياً منغوليون، كما أن التراث المشترك الذي يجمع الأتراك بالمنغوليين يسمى «التراث التركي-المنغولي»، ومنه اعتناق المجموعتين للديانة التنغرية واستعارة كلماتٍ كثيرة بين لغتيهما.

أما تقولب التعبير الأيديولوجي بشروط الجغرافيا السياسية، فقانون عام لا يقتصر على الترك والديانة التنغرية، كما أظهرت في العدد 77 من «طلقة تنوير» تحت عنوان «في الوظيفة الجغرافية السياسية للأيديولوجيا».

ومن يعتقد أن مثل هذا التوظيف السياسي انتهى بعد اعتناق الترك الإسلام فهو مخطئ تماماً. وفي 2202/8/32، احتفى التلفزيون التركي TRT باكتشاف بعثة تركية-منغولية نقشاً جديداً ومجمعاً لنصبٍ لمؤسس الخاقانية التركية الثانية، ألتريش قاغان. فهذا تراث قومي متصل قبل الإسلام وبعده وفي العصر الحديث، يحق فيه للترك ما يحق للعرب والفرس وغيرهم من الشعوب الإسلامية، ولا يجوز أن يكون الاحتفاء بالتاريخ القديم حلالاً للبعض دون غيره. ويمكن أن يرى من ينظر إلى التوسع التركي قبل الإسلام أن التوسع التركي بعده جاء استمراراً له، ولكن بغلاف ديني هذه المرة، لشرعنة النزعة التوسعية ذاتها.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 87
01 أيار 2023

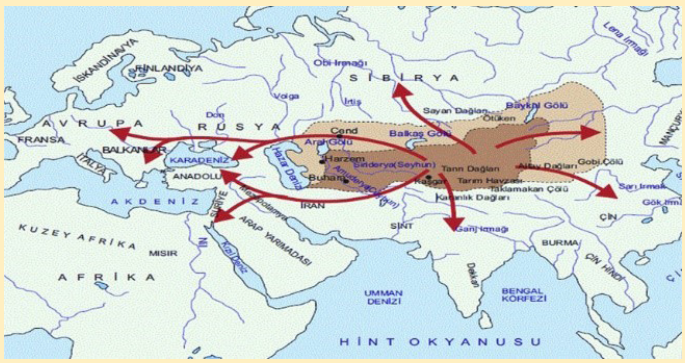

الانزياح غرباً في عاصفة من التتريك

من الثابت إذاً أن أمة الترك الأصليين واللغة التركية نشأتا في منطقة ما بين سهوب منشوريا شمال شرق الصين وسهوب منغوليا وجنوب سيبيريا، لكن الترك تمددوا غرباً حتى وصلوا شبه هضبة الأناضول في القرن الـ11 ميلادي، فوجودهم هناك غير أصيل وحديث نسبياً بالمعايير التاريخية، والأحدث بكثير هو تسللهم إلى ليبيا مثلاً أو شبه جزيرة البلقان.

رغم ذلك، فإن مركز الثقل تركياً انتقل إلى شبه هضبة الأناضول. ومن بين 200 مليون متحدث باللهجات التركية في العالم عام 2020، يعيش نحو 40% في شبه هضبة الأناضول وجوارها، ويعيش معظم باقي الناطقين بالتركية في آسيا الوسطى وصولاً إلى الإيغور في إقليم جينجيانغ الصيني، وأكثرهم عدداً بعد أتراك تركيا الأوزبك يقاربهم عدداً الأذريون (في إيران وأذربيجان)، ثم الأتراك في روسيا عموماً، ثم الأتراك المهاجرون إلى الدول الغربية ثم تركمان العراق وسورية ولبنان.

من المهم لفت النظر هنا إلى أن العنصر التركي شكّل مكوناً رئيسياً في الاتحاد السوفياتي السابق، ولا سيما آسيا الوسطى، وأنه ما برح مكوناً رئيسياً في روسيا اليوم جزئياً نتيجة انتشار الجزُر العرقية واللغوية التركية عبرها، إضافةً إلى اختلاط العرقين الروسي والتركي تاريخياً، ووقوع الكتلة التركية بين جنوب سيبيريا وشمال الصين.

كذلك تتناثر جزر الناطقين باللهجات التركية، ما عدا ذلك، من شمال شرق وشمال غرب إيران جنوباً إلى أرخبيل من الناطقين باللهجات التركية في روسيا شمالاً، من لهجة الدولغان شمالي غرب سيبيريا إلى لهجة ياقوت شمالي شرق مقاطعة الشرق الأقصى في روسيا.

وما هي إلا لهجات لن يلبث الناطق بالتركية أن يلتقطها أنّى احتك بأهلها بضعة أيام إلى بضعة أسابيع، مع أخذ مدى تأثر تلك اللهجات بلغاتٍ أخرى بعين الاعتبار، فالأذربيجانية مثلاً لهجة تركية متأثرة بالفارسية لفظاً ومصطلحاتٍ، ومع ذلك فإنها أسهل منالاً للناطق بالتركية من لهجة الإيغور التركية المتأثرة باللغة الصينية.

يشار أيضاً إلى أن الترك المنطلقين من سهوب منغوليا غرباً لم يكونوا غزاةً فحسب أسوة بأقرانهم المغول (التتر، بالمقابل، من الأقوام التركية)، بل فرضوا ذاتهم لغوياً على غيرهم من الأقوام بالقوة أحياناً، أي أنهم كثيراً ما مارسوا التتريك قسرياً. لذلك، وجد الباحثون أقواماً متباينة بشدة عرقياً جرى تمثلها تركياً عبر القرون، إما نتيجة تبنيها لسانهم أو احتكاكها بهم (تَشَبّه المغلوب بالغالب طوعاً أو قسراً)، أو نتيجة الغزو والتزاوج والتبني واعتناق الإسلام. وهو ما توصل إليه عددٌ من الباحثين في المادة المعنونة «The Genetic Legacy of Turkic-Speaking Nomads across Eurasia» عام 2015.

النزعة القومية التركية كمشروع سياسي

اتخذت النزعة القومية التركية الحديثة أشكالاً مختلفة بدءاً من القرن الـ19 الميلادي. وثمة تشديد في الأدبيات الغربية على التفريق بين النزعة القومية التركية من جهة، وبين شكلها المغالي والأسطوري، أي النزعة الطورانية، من جهة أخرى، على الرغم من صعوبة التفريق بين النزعتين فعلياً.

ويظل التفريق بين الاثنتين ممكناً نظرياً إذا فرقنا بين الحركة القومية التركية، كحركة سياسية ذات برامج وفاعلية وأثر ملموس في شروط الزمان والمكان المحددين، وبين النزعة القومية الطورانية، كنزعة فكرية تتبنى مقولات ذات طابع خيالي جامح وأسطوري أحياناً.

تبلورت حركة القومية التركية الحديثة في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر كمشروع سياسي يهدف إلى توحيد الشعوب التركية سياسياً وثقافياً. وقد انطلقت تلك الحركة من تركيا المعاصرة والقوقاز وقازان، في تترستان الروسية في أوروبا الشرقية.

ويشكل الفضاء الناطق بالتركية والممتد بين دول آسيا الوسطى وشبه هضبة الأناضول بؤرة تركيز الحركة القومية التركية، إضافةً إلى امتدادات ذلك الفضاء وأهدابه، من الإيغور في إقليم جينجيانغ الصيني، إلى البوسنة والهرسك في البلقان، إلى تركمان العراق وبلاد الشام.

تسعى حركة القومية التركية، باختصار، إلى بناء أشكال وحدوية بين الشعوب التركية، على غرار منظمة الدول التركية مثلاً، التي تأسست عام 2009 تحت اسم «المجلس التركي»، لتضم دول آسيا الوسطى السوفياتية سابقاً إلى تركيا، ما يعني فعلياً:

1) تعزيز فرصة تحويل تركيا من قوة إقليمية إلى قوة عالمية إذا استحكم نفوذها في الفضاء التركي وسط آسيا.
2) خلق حجر عثرة في قلب أوراسيا في وجه المشروع الأوراسي الروسي أو مشروع الحزام والطريق الصيني.
3) زيادة عدم التكافؤ في ميزان القوى بين «تركيا العظمى» والدول العربية كل على حدة، ولا سيما سورية والعراق.

النزعة الطورانية كدعوة أيديولوجية

أما المشروع الطوراني فهو دعوة فكرية تقوم على مجموعة من المقولات يتخطى بعضها الفضاء الناطق بالتركية إلى أبعاد جغرافية أوسع، وتتخطى حدود المنطق السليم وتحدي العلم إلى أبعاد سيريالية تحوم في فضاءاتها كأشباحٍ رمادية تغذيها أوهام العظمة التركية لمصلحة أجندة توسعية.

تقوم الطورانية على اعتبار العنصر التركي أساس العالم والحضارة. وترسم الطورانية الفضاء التركي جغرافياً على صورة قوسٍ يمتد بين جبال ألتاي Altai، التي تلتقي عندها الصين وكازاخستان ومنغوليا وروسيا، وبين المجر (هنغاريا) وأستونيا وفنلندا شرق أوروبا وشمالها، مروراً بآسيا الوسطى وشبه هضبة الأناضول. وتعرّف الطورانية الفضاء التركي عرقياً على صورة قوسٍ يمتد من المنغوليين إلى الهنغاريين إلى الأستونيين إلى الفنلنديين.

ومن هذين القوسين نستدل أن تركيا، بهذا التعريف، هي قلب أوراسيا وروح العالم. الأمر الذي تصادف تقاطعه لاحقاً مع نظريات علماء الجغرافيا السياسية ومشاريع تطويق روسيا. وما أوسع خيال من يربط بين منغوليا وفنلندا بحلقات تركية!

«شعوب ألتاي-الأورال»، أو «عائلة ألتاي-الأورال اللغوية»، نسبة إلى القوسين أعلاه، من المصطلحات غير العلمية الشائعة في الخطاب القومي الطوراني. ونقول إنها غير علمية لأن اللغويين قطعوا الشك باليقين بأن عائلة اللغات المنغولية تنبثق من جذرٍ لغويٍ منفصل عن عائلة اللهجات التركية، رغم وجود تأثيرات تركية قوية في المنغولية.

كذلك ثبت وجود تأثيرات تركية في اللغة الهنغارية، مع انتماء الأخيرة إلى جذر مختلف هو عائلة اللغات الأورالية، نسبة إلى الأورال، أسوةً بالفنلندية والأستونية. وهنالك مقولة أخرى، لا يقبلها معظم علماء اللغة، اسمها «عائلة اللغات الألتية»، نسبةً إلى جبال ألتاي السابق ذكرها، تربط اللغات المنغولية والكورية واليابانية بالتركية. رغم ذلك، فإن تلك المقولات من غير المسموح نقاشها حيث تستشري النزعات الطورانية، كما في تركيا وأذربيجان.

اللغة الفارسية، على سبيل المثال، جذرها هندي-أوروبي، واللغة العربية لها جذرها الخاص بها، وثمة تبادل كبير للمفردات والتأثيرات بين هاتين اللغتين المختلفتين جذرياً، ورغم ذلك لا يزعم أحدٌ أن إحداهما مشتقة من الأخرى.

في التوظيف السياسي للدعوة الطورانية

ما يزيد الأمر غرابةً وإثارةً للشكوك هو أن الفكرة الطورانية ولدت كمقولة منهجية في النصف الأول من القرن التاسع عشر على يد عالم اللغة وعالم الأعراق (إثنولوجيا) الفنلندي ماثياس ألكسندر كاسترن Matthias Alexander Castrén (1813-1852 م) وكان أستاذاً في جامعة هلسنكي، ولم يعش إلا 38 عاماً، ورغم ذلك فإن أثره في علم فقه

اللغات وعلم الأصول العرقية استمر طويلاً من بعده.

كان الدكتور ماثياس كاسترن قومياً فنلندياً، رغم انحداره من الأقلية السويدية في فنلندا، ولم نذكر أصوله العرقية هنا إلا للتشكيك في الرابط العرقي الذي اعتمده أساساً لنظريته الطورانية، والتي ربط فيها بين الفنلنديين والمجريين والأتراك والمنغوليين. فإذا كان رابطه بفنلندا حضارياً، لا عرقياً، كما يجدر أن يُعرّف الانتماء القومي لدى كل الأمم، فإن افتعاله لرابط عرقي (ولغوي) طوراني، ثبت علمياً فيما بعد أنه غير دقيق، يقوض كل «الهوية الطورانية» التي فبركها لموطنه فنلندا.

فماذا أراد د. ماثياس كاسترن من مثل ذلك الرابط؟ يجيب عالمُنا اللغوي والعرقي رداً على السؤال: «أنا مصمم على أن أظهر للأمة الفنلندية أننا لسنا شعباً منعزلاً من المستنقع يعيش في عزلةٍ عن العالم وعن التاريخ العالمي، لكننا في الواقع مرتبطون بسدس البشرية على الأقل. كتابة قواعد اللغة ليست هدفي الرئيسي، ولكن بدون القواعد النحوية لا يمكن تحقيق هذا الهدف» (المصدر: Hungarian Historical Review 3, no. 2, (2014): 391 – 417).

فما الهدف الذي يتحدث عنه د. ماثياس كاسترن؟ إنه تحرير فنلندا من روسيا القيصرية، إذ كانت فنلندا تحت حكم السويد في بداية القرن التاسع عشر عندما هاجمت روسيا السويد وانتزعت فنلندا منها عام 1809 م.، أي قبل ميلاد ماثياس كاسترن بأربعة أعوام. وظلت فنلندا تحت الحكم الروسي حتى انهيار القيصرية عام 1917، فأعلنت استقلالها.

من البديهي أن أمة صغيرة مثل فنلندا لا قِبلَ لها بروسيا وحدها. فمن زاوية موازين القوى كانت خلخلة القيصرية ذاتها شرطاً لاستقلال فنلندا عن روسيا، ومن البديهي أن زعزعة السيطرة الروسية على آسيا الوسطى كان سيحقق هدف إضعاف الإمبراطورية القيصرية وإشغالها عن فنلندا. لذلك، وجدت طروحات د. ماثياس كاسترن الطورانية صداها لدى القوميين الفنلنديين، وكان ذلك مثالاً آخر على قولبة الأيديولوجيا بشروط الجغرافيا السياسية.

ولا نستطيع اليوم أن نعزل اندفاع فنلندا للانضمام للناتو، بموافقة تركيا وهنغاريا، عن مثل تلك الخلفية التاريخية.

صودف طبعاً أن بريطانيا كانت حليفة السويد في حربها ضد روسيا التي خسرت فيها السويد فنلندا. كان تطويق روسيا استراتيجياً وعزلها الشغل الشاغل لبريطانيا طوال القرن التاسع عشر، ومن هنا دعمها العسكري المباشر للعثمانيين في حروبهم العديدة مع روسيا القيصرية آنذاك، فلا نستطيع استبعاد ضلوع بريطانيا في نشر المقولة الطورانية كأحد أشكال الحروب الناعمة ضد روسيا.

فهل يمثل ربط المقولة الطورانية ببريطانيا «نظرية مؤامرة» يا ترى؟ فلنرَ... إذ إن نشوء الفكرة الطورانية في هنغاريا في القرن الـ19 يلقي مزيداً من الضوء على الصلة البريطانية فيها.

ازدهرت المقولة الطورانية في هنغاريا في النصف الأول من القرن العشرين على خلفية «معاهدة تريانون» عام 1920 التي جردت «النمسا-المجر» سابقاً من معظم أراضيها، والتي تركت نحو ثلث المجريين موزعين كغنائم في الدول المجاورة، ولاسيما رومانيا وسلوفاكيا وأوكرانيا ويوغوسلافيا السابقة. وما برحت مشكلة ملايين المجريين في تلك الدول مشكلة كبرى حتى اليوم.

ساعدت صدمة معاهدة تريانون في هنغاريا على انتشار مقولات مثل «سقوط أوروبا» وضرورة «العودة إلى الجذور الآسيوية»، وعلى ازدياد شعبية المقولة الطورانية التي طُرحت هنغارياً في القرن 19. وكانت «جمعية طوران الهنغارية» قد تأسست عام 1910، وفي عام 1924 جرى تأسيس «جمعية نيبون الهنغارية» لتعزيز العلاقة مع اليابان، استناداً إلى المقولة الألتية، أحد أشكال الطورانية المتطرفة التي تربط الطورانية بأقصى الشرق.

كان من زرع الفكرة الطورانية في هنغاريا يهودياً مجرياً اسمه أرمين فامبري (1832 – 1913 م) Ármin Vámbéry كان أرمين، أو أرمينيوس، عالمَ لغويات ومستشرقاً ورحالةً ودبلوماسياً رفيعاً وخبيراً ضليعاً بتركيا وصديقاً لثيودور هرتزل وللعثمانيين وللإنكليز. وكان أول من طرح في هنغاريا، باللغة الهنغارية، فكرة العروة الطورانية الوثقى مع تركيا لغوياً وعرقياً بصورةٍ منهجية على مدى عقود.

أطلقت طروحات أرمين فامبري في هنغاريا ردة فعل قوية أسفرت عن مناظرات مطولة انتصر فيها دعاة انتماء المجريين ولغتهم إلى العائلة الأورالية (أي الأوروبية). أما في تركيا وبين بعض المجريين فما برحت فكرة الأصل التركي للهنغار سائدة حتى اليوم. من هنا عضوية المجر بصفة مراقب في منظمة الدول التركية منذ عام 2018. ويذكر أن رئيس الوزراء المجري فيكتور أوربان من أنصار القومية الطورانية. وكما في حالة أذربيجان الشيعية، فإن كون هنغاريا مسيحية أساساً لم يمنع تغليب النزعة الطورانية على الانتماء الديني.

المهم، نقلت صحيفة «ذي غارديان» البريطانية في 2005/4/1، بعد كشف وثائق سرية بريطانية في اليوم ذاته، أن المدعو أرمين فامبري كان عميلاً بريطانياً مكلفاً بتطويق النفوذ الروسي في آسيا الوسطى بحسب هذا الرابط:

https://www.theguardian.com/politics/2005/apr/01/highereducation.artsandhumanities1

لم نعد إذاً في حيز التكهن عندما نقول إن الفكرة الطورانية كان لبريطانيا مصلحة جوهرية في ترويجها في سياق تطويق روسيا وزعزعة استقرارها.

في تركيا، كانت جمعية الاتحاد والترقي من أنصار الدعوة الطورانية، وقد لعب القوميون الأتراك دوراً مباشراً في تصعيد حركة تمرد مطولة في آسيا الوسطى بين عامي 1916 و1934، ضد السوفيات أساساً.

وتشكل الطورانية اليوم مكوناً رئيسياً في منهج حزب الحركة القومية الذي يقوده دولت بهجلي (باهشلي)، الحليف الرئيسي لرجب طيب أردوغان. ويُعرَف جناح الشبيبة في ذلك الحزب باسم «الذئاب الرمادية»، مع العلم أن الذئبة الرمادية المسماة «أسينا» هي الأم المؤسسة لأول تحالف قبلي تركي في الأساطير القديمة.

دور الأسطورة في الخطاب القومي الطوراني

تلعب الأسطورة، بمعناها الحرفي غير العقلاني، دوراً رئيسياً في أدبيات الكتاب الطورانيين، ومن ذلك، على سبيل المثال لا الحصر:

1) إصرارُ مراد أدجي، أحد رموز الطورانيين، أن شعباً متقدماً تركي الدماء عاش في جبال ألتاي قبل 200 ألف عام، وأن ذلك الشعب أسس أول دولة في العالم قبل 35 ألف عام، وأنه هاجر من ثم إلى الأمريكيّتين.

2) تأكيدُ الكتاب المروجين لأطروحة «تركية التاريخ» أن الشعوب التركية هاجرت من آسيا الوسطى في العصر الحجري لتؤسس الحضارات الحثية والسومرية والبابلية والمصرية القديمة.

3) تبني كُتّاب مثل إسماعيل مزييف مقولة الأصل التركي للغات والحضارات الهندية الأوروبية (حضارات كورغان) التي نشأت في أوروبا الشرقية، والتي تفرعت اللغات الأوروبية منها.

4) اعتبارُ الكثير من الأقوام الجرمانية، مثل القوط والألمان والإنكليز، والكثير من الأقوام الإيرانية، مثل الميديين، والكثير من الروس، أتراكاً.

5) استثناءُ قلة فحسب من الأقوام من الهوية التركية، ومن الذين لا يعدهم مراد أدجي أتراكاً: اليهود (الذين يعدهم قومية مستقلة)، والشعب الصيني والأرمن والفرس والإغريق والإسكندنافيين.

6) نشرُ ميرفاتح زاكييف، الرئيس السابق لمجلس السوفيات الأعلى في جمهورية تترستان السوفياتية، مئات «الدراسات» التي تزعم أصلاً تركياً للسومريين والإغريق والأيسلنديين والأتروسكيين (في إيطاليا الحالية) وأهل كريت. وزاكييف ممن يزعمون أصلاً تركياً للغات الأوروبية الرئيسية.

7) تصنيفُ الكثير من الشخصيات البارزة في التاريخ بأنها تركية الأصل، من القديس جرجس (جورج أو مار جريس) عند المسيحيين، إلى بطرس الأكبر الروسي، إلى الأديب فيودور دستويفسكي، وغيرهم كثير.

8) تصويرُ الأتراك بأنهم «الفاتحون الخيرون» لمعظم شعوب أوراسيا التي تدين للترك بـ«دين ثقافي كبير».

9) وضعُ «نظرية لغة الشمس» على يد مصطفى كمال أتاتورك إياه في ثلاثينيات القرن العشرين، والتي تقول إن كل لغات الأرض مشتقة من جذر تركي.

10) نظرية خيرات زكريانوف بأن تجميعة الجينات اليابانية والكازخية متشابهة.

11) تأكيد عدد من الأكاديميين الأتراك بأن سلالة زاو Zhou Dynasty، التي حكمت الصين قرابة ثمانية قرون، ذات أصول تركية.

12) وبالإجمال، اعتبار كل الشعوب البدوية في أوراسيا، وكل الحضارات الكبرى فيها، ذات أصول تركية.

ورغم أن كل ما سبق عبارة عن هراء لا يصمد أمام أي تدقيق علمي، فإن المناهج الدراسية في كثيرٍ من الدول التركية، ولاسيما تركيا وأذربيجان، محشوة به، من المراحل الابتدائية إلى نهاية المراحل الجامعية، ويجري الترويج له حكومياً وعبر منظمات غير حكومية مدعومة حكومياً.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 87
01 أيار 2023

العثمانيون الجدد

بشار شخاترة

في خضم الهجوم المعادي على الفكر القومي العربي والذي يقوده عملاء الخلافة العثمانية الجديدة، يتقولون على المشروع العربي الوحدوي إنه مشروع غيبي، وإن فشل المشروع أصبح مبرماً بعد التجربة الناصرية والتجربة البعثية. وينطلق بعض معادي هذا المشروع من مقولة إن الفكر القومي العربي الراهن أصبح بمثابة الواقف على الأطلال التي لن تعود أيامها أو لن يعود أهلها أو التي عفا عليها الزمان. يحاول بعض الحاقدين على العروبة من غير العرب تصوير المشروع القومي العربي بأنه من قصص الفنتازيا التاريخية، وأن العروبيين يعيشون الخيال هرباً من واقع أمتهم المر، وأن من الأجدى للعرب أن يكونوا تحت كنف مشاريع قومية أخرى يجمعها جميعا العنصر الديني. يتبنى هذا الحقد على العروبة ما يصطلح عليهم العثمانيون الجدد، أو إذا جاز التعبير «الأردوغانية السياسية»، والتي أطلت برأسها مع صعود حزب العدالة والتنمية التركي إلى السلطة بمساندة ودعم غربيين أتاحا لحزب أردوغان غطاءً سياسياً في مواجهة الجيش التركي الذي اعتاد أن ينقلب على السلطة السياسية، ومنها الحكومة ذات الطابع الديني، ومثالها حزب نجم الدين أربكان، أستاذ أردوغان وشيخه.

هذا إطلاقٌ للكلام على غير هدى لتحقيق غاية سياسية، أو لغايات تفتير الهمم وتوهين الشعور القومي لدى العرب، والذي اعتادت الدعاية التركية ترويجه، وخصوصاً بعد صعود الإسلام السياسي إلى السلطة في تركيا، الأمر الذي يعيد الذاكرة العربية إلى بؤس القرون الأربعة التي جثم فيها الاحتلال التركي العثماني على بلادنا، ويكشف النوازع الاستعمارية للعثمانيين الجدد بعد أن خلعوا الطربوش وارتدوا ربطات العنق، لكن الجوهر الاستعماري التوسعي لا

يزال حاضراً في الفكر والسياسة التركية الإسلاموية، والتي تستخدم الإسلام غطاءً وجسراً لعبور الحغرافيا العربية ولعبور التاريخ ومسح الذاكرة.

فهل عروبتنا مثالية وخيالية ولا تقوى على الإيناع إلا إذا استظلت بمظلة العصملي أو غيره؟ وهل مشروعنا متهافت إلى الحد الذي يبدو فيه أن الأتراك العثمانيين كانوا إضافة نوعية إلى تراثنا وحضارتنا، أم أن العكس هو الصحيح؟

تاريخياً عندما غربت شمس المحتل التركي عن بلادنا كانت الأمية قد تفشت بشكلٍ أصبحت هي الأصل والاستثناء أن تجد من يفك الخط، كما يعبر عنها بالعامية، إضافةً إلى تهريب الصناعات الهامة القابلة للتطور وإحداث نقلة نوعية في بنية الاقتصاد في البلاد العربية التي خضعت للاحتلال العثماني إلى المركز التركي، والذي أصبح فيما بعد تركيا الحالية.

إن تبرير الإغراء التركي أمام الجمهور العربي المسلم في أغلبه ينبع من نقطتين أساسيتين: الأولى مرتبطة بالمد العسكري العثماني أيام السلطنة إلى قلب أوروبا ودرته كانت فتح القسطنطينية وانهيار الإمبراطورية البيزنطية، وثانيها مسمى الخلافة الإسلامية الذي تبنته السلطنة العثمانية معتبرة نفسها امتداداً للخلافة الإسلامية، والتي هي بمثابة خلافة رسول الله في أمور الدين والدنيا على نهج الخلافة الذي كان معروفاً وانتهى بانهيار الخلافة العباسية.

هاتان النقطتان تمثلان ركيزة الأيديولوجيا العثمانية الجديدة، والتي برع أردوغان في التبشير بهما متوسعاً في هذا الخطاب بالتعاون مع حلفائه العرب من جماعة الإخوان المسلمين التي لعبت دور المحلل للدور التركي الجديد، والمبشر بانطلاق الصحوة الإسلامية. فعلى مدى العقدين المنصرمين من حكم العدالة والتنمية، بقيادة الخليفة التركي رجب طيب أردوغان، أزبد وأرغى بفلسطين وتحريرها واستعرض اندفاعه المسرحي للدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني في نفس الوقت الذي تقيم حكومته أوثق العلاقات الاقتصادية بالكيان الصهيوني.

هناك من يتولى التبرير طبعاً بأنه محكوم بقواعد اللعبة السياسية في تركيا وبرقابة الجيش عليه وعلى حزبه وعلى حكمه بالمجمل، وأصوات التبرير توجه للعرب دون غيرهم لاستمرار خدعة تزييف الوعي والحقائق بأن الخليفة يتحين الفرصة المناسبة للدفاع عن الأقصى أو تحريره إن شئتم، مع أن أردوغان، وعلى إثر الانقلاب الفاشل الذي كاد أن يطيح به من الجيش، أذل المؤسسة العسكرية بشكل أثار حفيظة كثيرٍ من الأتراك ولاسيما العسكريين والأمنيين منهم، وهذه قد تكون بمثابة الجمر تحت الرماد، لأن ما جرى وصل حد التنكيل وبذات الوقت رسخ سلطان الخليفة الجديد وقلب النظام السياسي التركي إلى نظام رئاسي استحوذ فيه على السلطة وجعل مفاتيحها بيده ومحاسيبه وأصهاره.

إغراء الأسلمة، الذي يداعب مشاعر بعض العرب، لم يتنبه كثير من البسطاء أنه خطابٌ لا يعنيهم من قريب أو من بعيد إلا بالقدر الذي يعبر عن كوامن ومتخيلات أردوغان باستعادة الهيمنة على البلاد العربية، وأن معركة أردوغان

في تركيا هي جزء من معركة سياسية في إطار الصراع على السلطة كما هي في أي بلد في العالم، لها خطابها وأدواتها، وأن رفع القيود عن الحجاب بالنسبة للنساء في تركيا لن يقدم ولن يؤخر في واقع العرب شيئاً ولا حتى في تركيا نفسها. فهذا جزء من المعركة التي تحاول جذب الأنصار، وقد لعبها أردوغان ببراعة مستغلاً الإيمان لدى كثيرٍ من الأتراك الذين يرون في الحجاب جزءاً من عقيدتهم الدينية، فإذا ما أضيف إليها التوظيف الغربي للإسلام السياسي في تركيا، وبالمعية للإخوان المسلمين في الوطن العربي، حيث حاول كل طرف الاستثمار في الآخر، ما أثمر نجاحاً اقتصادياً لما يزيد على العقد ونصف العقد في تركيا نتيجة ضخ رؤوس الاموال الأوروبية أساساً في الاقتصاد التركي وتسهيل حركة التجارة مع تركيا.

إن العلاقة العربية التركية، والتي تعود جذورها إلى ما قبل الهيمنة العثمانية المباشرة على بلادنا، والتي امتدت أربعة قرون، بدأت عندما تسللت العناصر التركية إلى البلاط العباسي على يد المعتصم الذي اصطنعها وسخرها لفائدة حكمه، إلى أن انقلبت على من جاء بعده وأصبحت الخلافة بأيدي الأتراك من الناحية الفعلية والواقعية. لكن الأتراك عندما دخلوا لأول مرة بلاط العباسيين لم يعدوا أن يكونوا قبائل همجية تحترف الحرب والقتال ولديها حس براغماتي إلى الحد الذي طوعت نفسها في خدمة الخلافة العباسية، ما سمح لها أن تحتك بالحضارة لأول مرة في تاريخها، عندما قيض لهم أن يساكنوا الخلافة ويجاوروا رعاياها في بغداد، عاصمة الدنيا بكل ما تعني الكلمة من معنى، وبكل ما للحضارة من وهج. فأي إضافة جاءتنا من أسلاف هؤلاء البرابرة سوى أن أعادونا قروناً إلى الخلف عندما خرجوا من بلادنا؟ وعلى رغم احتكاكهم بنور الحضارة العربية الإسلامية في قمة توهجها في العصر العباسي إلا أنهم لم يغادروا سيرتهم في احتراف الحرب والقتال.

أما أكذوبة توسعهم في نشر الإسلام فكانت لإضفاء طابع ديني وحضاري وأخلاقي على حروب السلطنة العثمانية، التي عبرت عن نزعتها العسكرية باستمرار في ذلك، أكثر من اهتمامها لأمر الدعوى والدين ولتكريس نفوذهم على العرب الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من رعايا سلطنتهم، وما ممارسات السلاطين وجنودهم وتخليهم اللاحق عن أجزاء من السلطنة كالجزائر وعدن وأجزاء من الخليج العربي وهم في ظرف قوة إلا معبر هام عن حقيقة نواياهم، واعتنائهم فقط وبالنهاية في قوميتهم التي كانت تكن للعرب العداء والشعور بالانتقاص تجاههم.

أما أكذوبة الخلافة فهي ورقة، كما استخدمها كثيرون ممن قفزوا إلى السلطة عبر تاريخنا، سخرها السلاطين العثمانيون بذات الاتجاه، إلى أن وصلنا إلى مرحلة تاريخية أصبح فيها موضوع الخلافة مفتقداً للوعاء المادي الذي يواتيه أو ينسجم معه، وذلك لتبدل حال السلطة في جميع بقاع الأرض، ولأن شكل الدولة الذي ناسب هذا النوع من أنظمة الحكم الديني لم تعد تتواءم معه البنية المجتمعية للمجتمعات البشرية. ولا منقصة في ذلك من شأن وجود الدين في حياة المجتمعات أو ممارسة شعائرها، ناهيكم من أن شكل السلطة في الإسلام لم يتحدد بالنص، وإنما بقي مفتوحاً

للاجتهاد ولتطور الحياة وفعلياً للغلبة من القابضين على السلطة.

شهد هذا الجانب خلافاً بين المسلمين وفقهائهم لم يغلق فقط على فتنة سنة وشيعة وإنما تدحرج داخل المذاهب الإسلامية نفسها أخذاً ورداً، فيهم من قال بأن الإمامة في علي بن أبي طالب وبنيه في وصية منصوصة مرفوعة إلى النبي لدى الشيعة، والذين اختلفوا في أيٍ من بنيه، هل هي في أبناء فاطمة الزهراء أم من أبناء علي من غيرها. كما تطور الخلاف حول استمرار الإمامة إلى أن وصلوا إلى اثني عشر إماماً غاب آخرهم كما تقول الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ومنهم من قال بغير ذلك بتوقفها عند الإمام السادس أو السابع كما في الإسماعيلية، بالتزامن مع قول السنة إن الأئمة من قريش، واختلفوا في اختيار الخليفة القرشي الذي كان بالانتخاب في أولها، وبطرقٍ مختلفة في حالة الخلفاء الراشدين، إلى التوريث في عهد بني أمية وبني العباس، إلى فتاوى فقهاء السلاطين اللاحقين بالقول بالإمامة للمتغلب والذي ينوب عن الإمام القرشي الموجود شكلاً، وذلك لتبرير هيمنة العناصر الفارسية والتركية على الخلافة العباسية، فإذا كان هذا هو الحال في شأن الخلافة التي لم تستقر على قاعدة ولم تثبت بنص مقطوع فيه، فإن الخلافة التي يغوي بها أردوغان العرب وحدهم لا مكان لها، وهي غزل للمشاعر واستدرار للعواطف واستغلال لحالة الضعف والتمزق العربي.

إن أصل العلاقة بين العنصر العربي والعنصر التركي قائمٌ على الصراع، وهذا ما يتلمسه طالب المعرفة في بطون الكتب التي أرّخت لهذه العلاقة منذ نشأتها، ولا مناص من القول إنه بفضل استغلال القبائل التركية للعرب والإسلام معاً تم توطين العنصر التركي البدوي غير المتحضر أساساً في أراضٍ لم تكن موطناً لهم يوماً، عندما انساحوا في غزوات إلى هضبة الأناضول وما بعدها غرباً وجنوباً، وأنهم لا يزالون يحلمون بحلب والموصل كما استولوا على الإسكندرون وغيره من الشمال السوري والعراقي من بلاد العرب، وهذه ليست اتهامات بقدر ما هي حقائق عبّر عنها سلطان إسطنبول الجديد، ومريدوه من عشاق الخازوق العصملي من بعض أبناء جلدتنا من العرب، ويكفي أن نراجع جرائم أردوغان والطورانية التركية بثوبها العثماني المتأسلم خلال العقد الأخير في سورية والعراق، ومجرى نهري دجلة والفرات شاهدٌ على ذلك.

يزيدنا فهماً لطبيعة العلاقة القائمة على صراع قومي أن العنصر التركي وما يزال يرى بلادنا مجالاً حيوياً وحديقةً خلفية له، وما تحالفه مع ألد أعدائه التاريخيين بريطانيا وروسيا القيصرية اللتين هبتا لنجدته في دحر مشروع محمد علي باشا الوحدوي المنطلق من مصر، إلا لأنهما تريان في السلطنة العثمانية برغم الصراع الطويل معها عدواً مقبولاً لا يشكل خطراً وجودياً عليهما أو عائقاً حقيقياً في وجه طموحات الاستعمار الغربي عموماً، فيما هذا لا ينطبق على دولة عربية واحدة شرع محمد علي باشا وابنه إبراهيم في بنائها، وهذا هو الوضع القائم حالياً من وجود تركيا كقوة عسكرية تحتل مكاناً متقدماً في حلف الناتو على تخوم الوطن العربي.

أحلام الخلافة العثمانية التي تراود الإسلام التركي قبل العلمانيين والقائمة على الهيمنة والاحتلال لا ترى بأساً أو غضاضة في التمدد على حساب بلادنا كلما سنحت لها الفرصة، مستغلة ستار الدين والمذهبية في سبيل ذلك، لهذا نؤشر إلى خطورة هذا بما لا يقل عن خطورة مشاريع الغرب الاستعماري وعلى رأسها المشروع الصهيوني الجاثم، كلهم بالنتيجة يبحثون عن تمزيقنا واقتطاع أجزاء من بلادنا ونهب ثرواتنا.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 87
01 أيار 2023

لماذا علينا كعرب دعم أردوغان في الانتخابات التركية؟

نسرين الصغير

لا يمكن لأحد أن ينسى الدور العثماني في إعادة العرب ألف سنة إلى الوراء خلال فترة الاحتلال العثماني للوطن العربي.
فهل يمكن أن نكافئ فضلهم هذا بعدم دعمنا للعثماني الجديد رجب طيب أردوغان؟
لا يمكن لأي مسلم، وعربي بالأخص، أن لا يدعم أردوغان العثماني المسلم التركي، كيف لا؟ ونحن نرى مشروعه على أرض الواقع، وخصوصاً في الجمهورية العربية السورية، خلال ما يسمى بـ»الربيع العربي»، حيث قام أردوغان بدعم العصابات الإرهابية وتسليحها وتدريبها، وباحتلال جزء من أرضنا العربية، وبتفكيك مصانع حلب وسرقتها.
أما هنا، فلن نتحدث عن الدور التركي في سورية. ولن نتناول الفساد المالي لأردوغان والمحيطين به، ولا الدمار الاقتصادي في تركيا، لأن الموضوعين الأخيرين من الأمور الداخلية التي لا تخصنا، بل سنتحدث عن العلاقات التركية-»الإسرائيلية»، وكم نمت خلال العشرين سنة الماضية، أي خلال الحكم الأردوغاني، وكيف يمكن أن ندعم أردوغان في الانتخابات حتى تستمر هذه العلاقات التطبيعية وتنمو وتزدهر أكثر، وحتى يستمر أردوغان في مخططاته السامة في وطننا العربي؟

أولاً: الاتفاقيات التجارية الثنائية بين الكيان الصهيوني وتركيا:

- **مُعاهدة الاستثمار الثنائية (BIT):**

هي اتفاقية بين دولتين تضع «القواعد الأساسية» للاستثمار الأجنبي بينهما. وتمنح اتفاقيات الاستثمار الثنائية المستثمرين وصولاً أفضل إلى الأسواق الأجنبية. ولدى تُركيا 129 اتفاقية من هذا النوع، تجمعها إحداها مع «إسرائيل»، وقعت في آذار 1996، ودخلت حيز النفاذ في آب 1998.

- **معاهدة أحكام الاستثمار (TIP):**

وهي اتفاقية اقتصادية تتضمن أحكام تُمهد لاتفاقيات الشراكة الاقتصادية واتفاقيات التجارة الحرة، ولدى تُركيا 21 من هذا النوع من الاتفاقيات، بينها «الإسرائيلية» والتي وقعت في آذار 1996، ودخلت حيز النفاذ في آيار 1997.

- **معاهدات تجنب الازدواج الضريبي:**

معاهدات تجنب الازدواج الضريبي هي اتفاقيات ثنائية تضع الدول المتعاقدة في سياقها القواعد الضريبية التي ستطبق على الدخل والأصول المرتبطة بالبلدين. تُطبق هذه القواعد بالإضافة إلى قواعد الضرائب التي يتم تطبيقها وفقاً للقانون الداخلي ذي الصلة، وبالتالي تحل المعاهدات مشاكل الازدواج الضريبي بين البلدين.

- **اتفاقية التجارة الحرة (FTA):**

وقعت اتفاقية التجارة الحرة بين تركيا و«إسرائيل» في 14 آذار 1996 في القدس ودخلت حيز النفاذ في 1 آيار 1997. وفي ظل هذه الاتفاقية أُلغيت الرسوم الجمركية والحواجز غير الجمركية في التجارة بين الطرفين. كما تغطي الاتفاقية أيضاً العديد من المجالات المتعلقة بالتجارة مثل تدابير الصحة والصحة النباتية والضرائب الداخلية وميزان المدفوعات والمشتريات العامة ومساعدات الدولة وحقوق الملكية الفكرية ومكافحة الإغراق وتدابير الحماية وقواعد المنشأ.
وفيما يتعلق بالمنتجات الصناعية، فقد ألغيت جميع الرسوم الجمركية والرسوم ذات الأثر المماثل اعتباراً من 1 كانون الثاني 2000.

المصدر: https://marsad.ecss.com.eg/37588/

ازدهار العلاقات التركية-«الإسرائيلية» تجارياً بعد وصول حزب العدالة والتنمية إلى الحكم عام 2002:

حسب بيانات وزارة الخارجية «الإسرائيلية» ومكتب التصدير التابع لها، فإن حجم الصادرات «الإسرائيلية» إلى تركيا في العام 2021 وصل إلى 1.9 مليار دولار، أما حجم الواردات فبلغ 7.7 مليار دولار، حيث كانت تركيا ذلك العام خامس أكبر شريك تجاري مع «إسرائيل» في العالم.

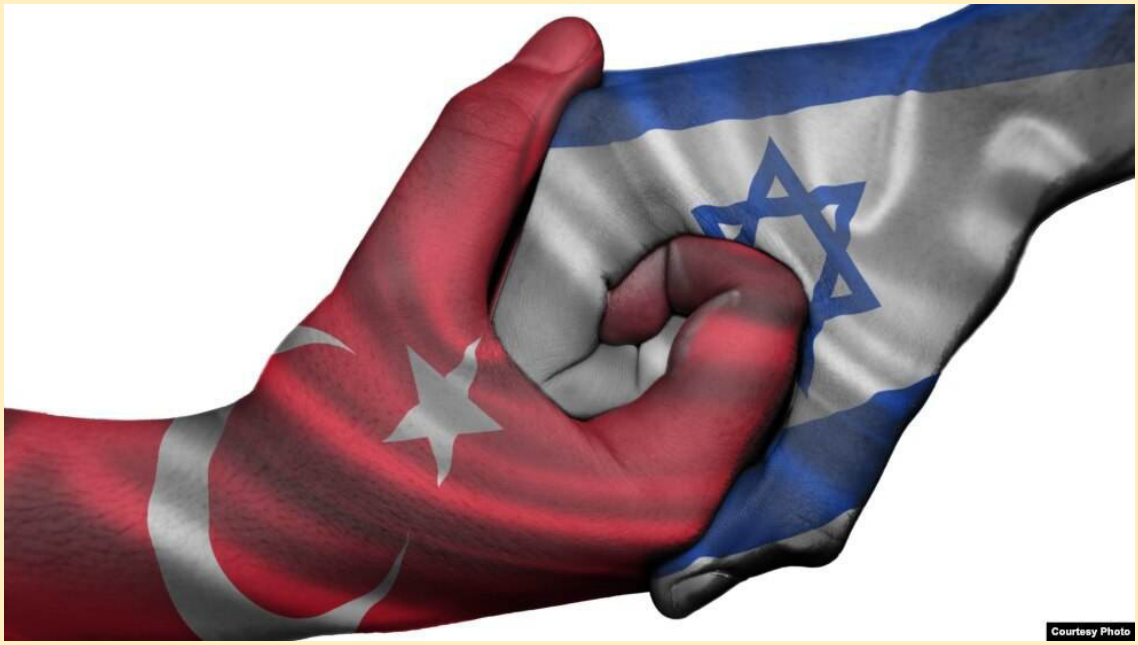

وبلغ حجم الصادرات «الإسرائيلية» إلى الكيان العثماني 3.7 مليار دولار عام 2022، وبلغ حجم واردات الكيان الصهيوني منه 8.4 مليار دولار، لتحل تركيا في المرتبة الخامسة عالمياً مباشرةً بعد الصين والولايات المتحدة الأمريكية وسويسرا وألمانيا من حيث كمية التصدير إلى «إسرائيل».

وفي 12/1/2023، تناقلت وسائل الإعلام تصريحاً عن سفير تركيا الجديد في الكيان الصهيوني، صقر أوزكان، أن حجم التبادل التجاري بين تركيا و«إسرائيل» سوف يرتفع إلى 15 مليار دولار سنوياً.

وأضافت تقارير إعلامية: «في أعقاب زيارة وزير الخارجية التركي إلى «إسرائيل» في أيار 2022، تم الاتفاق على تتويج هذه الاتفاقيات التي وقعت على مستوى القاعدة الاقتصادية، من خلال رفدها بدعامات سياسية ودبلوماسية مثل عودة الملحق الاقتصادي «الإسرائيلي» إلى تركيا، وعودة اللجنة الاقتصادية المشتركة للالتئام لوضع المسوغات القانونية اللازمة لتسهيل هذه الاتفاقيات، الأمر الذي قد يدفع العلاقات التجارية التركية- «الإسرائيلية» إلى مستويات جديدة.»

«وأدى دخول اتفاقية التجارة الحرة بين تركيا و«إسرائيل» حيز التنفيذ لارتفاع قيمة الصادرات التركية إلى «إسرائيل» بنسبة 250%، وبلغ حجم التبادل التجاري بينهما عام 2010 نحو 3.44 مليار دولار، وواصل التعاون التجاري بينهما النمو حتى وصل حجم التجارة المتبادلة في العام التالي 2011 إلى 4.5 مليار دولار، وتأتي قطاعات السيارات، الحديد والصلب، الآلات الكهربائية والإلكترونية، والمنتجات البلاستيكية، في طليعة أكثر المنتجات التركية تصديراً ل"إسرائيل"».

ثانياً: سياحياً

تضيف مواقع: «تعتبر تركيا الوجهة السياحية الأقرب والأرخص تكلفةً للكيان الصهيوني حيث بدأت بالنمو عام 2000 ووصلت إلى ذروتها وإلى أعلى مستوياتها تاريخياً عام 2019»، أي خلال الحكم العثماني الأردوغاني.

«قبل حوالى 15 عاماً، منعت «إسرائيل» شركات الطيران «الإسرائيلية» من تسيير رحلات جوية إلى تركيا لدواعٍ أمنية. أهم هذه الشركات هي «إسرإير» و«أركيا» و«العال». والسبب في توقف الشركات «الإسرائيلية» عن العمل على الخطوط التركية كان خلافاً بين تركيا و«إسرائيل» على إجراءات الأمن، والبنية التحتية للرقابة الجوية والتفتيش التي تفرضها «إسرائيل» على مطارات العالم التي تسير رحلات للخطوط الجوية «الإسرائيلية» إليها».

«لكن بعد زيارة وزير الخارجية التركي إلى «إسرائيل»، سارع وزيرا المواصلات «الإسرائيلي» والتركي إلى عقد اتفاق جديد، هو الأول من نوعه بين البلدين منذ العام 1951، ووضعا أسساً لفرض الإجراءات الأمنية «الإسرائيلية» في مطارات تركيا تماشياً مع البرتوكولات المعمول بها في «إسرائيل» عندما يتعلق الأمر بشركات طيران «إسرائيلية».»

وفي 2023/03/30، استأنفت شركات الطيران «الإسرائيلية» رحلاتها إلى تركيا.

ولا ننسى طائرات الدعم التركي التي توجهت لـ«إسرائيل» خلال الأزمة التي واجهها العالم وقت تفشي فايروس كورونا حيث قامت تركيا بإرسال طائرات مساعدات طبية لـ «إسرائيل»، وقامت الثانية برد الجميل للأولى عندما أرسلت فريق الإنقاذ «الإسرائيلي» «أغصان الزيتون» حيث هبطت طائرتهم في مدينة أضنة التركية الواقعة في منطقة الزلزال الذي ضرب البلاد، وكان يضم الوفد موظفين من وزارتي الدفاع والخارجية، بالإضافة لأفراد الجيش الصهيوني الذي

سيقوم بمهمة الإنقاذ.

كل ما سبق ذكره طبعاً قام به أردوغان مجبراً لخدمة القضية الفلسطينية وخدمة الاقتصاد التركي. وكان مرغماً عليه لخدمة المشروع الإسلامي، أليس كذلك؟ وسنذكر أهم زيارة قام بها أردوغان إلى الكيان الصهيوني حين وضع أكاليل الزهور على قبر ثيودور هرتزل، وقام بزيارة مجمع «ياد فاشيم» - أي المركز العالمي التوثيقي والبحثي والتعليمي لتخليد ذكرى «الهولوكوست» المزعوم في «إسرائيل». جاءت تلك الزيارة طبعاً في حقبة المجرم أرييل شارون الذي ارتكب أبشع المجازر في حق الشعب العربي عموماً والفلسطيني خصوصاً. هنا لا يمكننا إلا أن نقول إنه كان مجبراً ومرغماً على هذه الزيارات لمصلحة الشعب الفلسطيني، قبل التركي.

لا يمكن لك كعربي أن تقف صامتاً أمام ما سبق ذكره من إنجازات أردوغان لخدمة القضية الفلسطينية، لا بل علينا أن نرفع صوتنا عالياً لدعم العثماني وأن نرفع صوره وأعلامه كما يفعل البعض الذي يعتبر هذا الطيب رافع الراية الإسلامية «العثمانية» الذي سيعيد لنا أمجاد الفتوحات العثمانية (لا العربية).

هل كان محمدٌ تركياً؟ لا، ولكن خليفته لم يكن عربياً، لا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي؛ بل كان عثمانياً تركياً اسمه رجب طيب أردوغان.

واليوم سنرفع كعرب أيادينا للسماء لندعي الله بأن يحكم تركيا أي صعلوك غير طيب الذكر أردوغان الصهيوني.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 87
01 أيار 2023

من أين جاء المصريون القدماء؟ وهل مصر «سوداء»؟

فارس سعادة

ربما لن يتجاوز هذا المقال حدود ردة الفعل على الكثير من الأخبار والمقالات والمنشورات على مواقع التواصل الاجتماعي حول أصول الحضارة في العراق ومصر، وذلك بالطبع ناتج عن حقيقة عدم امتلاكنا كعربٍ لأدوات البحث «والمعلومات» الكافية لعمل بحثي عظيم يضع كل الماضي في مكانه ويرده إلى أصله الحقيقي، وربما أيضاً لن يصل البحث لكثيرٍ من مكامن الصراع على الماضي بين «الشرق» والغرب، وبشكل واضح أكثر بين العرب والغرب، بين خطابٍ حقيقي يعتمد العلم والبحث والتجربة، وبين خطابٍ آخر، ربما علميٍ في كثير من الأحيان، إلا أن الماضي الحديث أثبت بشكل قاطع أن كل ما يحدث من حولنا مسيّس ويدار من خلف الكواليس بشكل أو آخر.

انتشر خبر مسلسل كليوباترا على منصة نتفليكس المشبوهة خلال الفترة الماضية بشكل واسع على منصات التواصل الاجتماعي، وكان السبب الرئيسي في أخذ هذه السلسلة المصورة كل هذا الصدى وردود الفعل المختلفة هو تصوير الملكة المصرية كليوباترا بأنها سوداء البشرة، مما أغضب الكثير من المصريين وغيرهم كثر، وأفرح الكثير من الأفارقة! اللافت في ردود الأفعال هي ندرة من دافع عن عروبة مصر القديمة، فقد كان غضب كثيرٍ من المصريين يعود لإنكارهم الأصل الإفريقي لمصر القديمة «قومياً»، وإصرارهم على أن مصر «مصرية» منذ القدم. وهنا السؤال الأهم الذي يجب أن يطرح: من هم المصريون القدماء؟ ما هي ثقافة مصر القديمة؟ وهل وجدت في مصر حصراً؟ من أين جاؤوا، وما هي أصولهم العرقية؟ وما علاقة العرب بمصر القديمة؟

في الحقيقة هذا الصراع ليس بالجديد، أو لنقل هذا الخطاب حول الحضارات القديمة ليس جديداً، بل هو قديم قدم علم الآثار الحديث. فقد بدأ أواخر القرن السابع عشر وتحول إلى علم منهجي بشكل أو آخر في نهايات القرن التاسع عشر؟ والجامع بين كل خطاب حول الحضارات القديمة في «الشرق» هو إنكار عروبة أي حضارة قديمة، عبر طرق مختلفة بعضها لا أساس له سوى في الكتب «التاريخية».

تعتبر قضية أصول السومريين الأشهر بين قصص الحضارات القديمة، فقد أخذت مساحةً كبيرة في عقول وكتب ومقالات

علماء التاريخ والآثار الغربيين حتى وصل البعض إلى أن السومريين قدموا من الفضاء «الأنوناكي»، كما يهلوس البعض بأن الأهرامات بنيت لتوليد الكهرباء، والبعض خرّف وقال بأنها سفن فضائية! سأكون صريحاً بقدر صراحة هؤلاء وأزعم بأنهم مجانين وجهال لا عقل لهم ولا علم، هواة ودجالون أكانوا أجانب أم عرباً. فقد جمع علماء الآثار مئات الدلائل الأثرية «الأكيدة» في موضوع حضارة سومر وأكاد وغيرها، وتتحدث النقوش عن نفسها بشكلٍ واضحٍ في كثير من الأحيان كما أحدثكم الآن، وبالتالي لا يرى الباحث المحايد والذي يسعى إلى الحقيقة أية صعوبة في الرد على الكثير من خرافات أصل سومر ومصر القديمة.

يعتبر علم الآثار حقيقةً حاضناً لكل العلوم الإنسانية، فمجال الآثار يشتبك مع الكثير من العلوم الإنسانية والطبيعية بشكل كبير وجذري وأساسي، فلا يمكن نبط المعلومات من الأرض إلا عبر الكثير من التقنيات الحديثة، ومن الصعوبة تحليل اللقى إلا بالتعاون مع الكثير من الخبرات والعلوم المختلفة. هذا ما أدى إلى دقة كثيرٍ من النتائج التي خرجت بها آلاف البعثات الأثرية في مصر والعراق، ومنها أصول الشعوب القديمة وثقافاتهم اليومية، واللغة والكتابة والممارسات الدينية والحياتية اليومية...إلخ.

تشكل مصر القديمة «هوساً» في العقل الغربي منذ حملة نابليون، فهي جوهرة الشرق في رأيهم وسحر الماضي والفراعنة وقصص التوراة، وترتبط في أذهان الغرب بموسى ويوسف وغيرهم من الشخصيات التوراتية، وبالتالي أخذت مصر الكثير من الاهتمام الغربي خلال القرنين الثامن والتاسع عشر قبل اكتشاف العراق وبلاد الشام القديمة ودفائنها السحرية. وقد أنتج الغرب بصدق الكثير الكثير من الأبحاث والكتب الأكاديمية حول مصر القديمة، وأنا هنا لن أحيد عن العلم الغربي معرفياً بل سأنقل ما قيل ويقال حول ماضي مصر وأصلها بحسب الأبحاث الأثرية والتاريخية.

تقع مصر في شمال إفريقيا وجنوب غرب آسيا، وشكلت تاريخياً مقراً للكثير من الهجرات التاريخية والتي يعود تاريخ بعضها إلى 40 ألف عام قبل التاريخ، أي في بدايات الاستقرار الجماعي على ضفاف النيل، وقد شكل النيل العنصر الجاذب الأهم للهجرات البشرية المختلفة. وتجمع جميع الأبحاث العلمية التي تتعلق بالأصول الجينية للشعوب القديمة بأن أصول المصريين القديم تنحصر بالجماعات البشرية القادمة من: شمال وشرق إفريقيا وبلاد الشام واليمن، وقد شملت هذه الدراسات أغلب الفترات القديمة التي تشمل حضارات البداري ونقادة إلى الدولة الأولى في مصر تحت حكم الملك «نارمر».

عكست نتائج الدراسات الجينية التي اختلفت من حيث طريقة الدراسة وجغرافيا هذه العينات وتاريخها وعددها، جوامع جينية مشتركة للمصرين القدماء والمعاصرين، وبين الشعوب المختلفة، كان المشترك الأهم بينها جميعاً هو سيطرة الجين المشترك بين مناطق بلاد الشام واليمن والجزيرة العربية والمصريين القدماء والمعاصرين، وبينهم جميعاً وبين المغرب العربي وشمال إفريقيا، وبدرجة ثانية وجود مشترك كبير بين المصريين القدماء وشعوب شرق إفريقيا والتي تطابق تقريباً العلاقة بين اليمن وشرق إفريقيا.

وبالتالي فإن الجينات المشتركة بين المصريين القدماء والمصريين المعاصرين متفاوتة، إلا أنها تتوزع بشكل كبير وغير متساوٍ، وتسيطر فيها جينات،J1,J2,E1b1a,E1b1b والتي تمثل جينات اليمن والجزيرة العربية وبلاد الشام وشمال إفريقيا، أي الجين الأكثر انتشاراً لدى العرب القدماء والمعاصرين، وبدرجة أقل الجين M1 والذي يمثل مناطق القرن الإفريقي، والتي تشمل الصومال وجيبوتي وجزءاً من أثيوبيا. وتختصر الدراسات التي تتعلق بالهجرات الأولى لمصر القديمة الكثير إذ إنها تُجمِع على أن أقدم الهجرات لمصر القديمة جاءت من الجزيرة العربية واليمن وبلاد الشام أو من شمال إفريقيا، وغالباً تُجمِع بأن الهجرات جاءت من آسيا وإفريقيا معاً. وهذا يتقاطع مع نتائج الدراسات الجينية التي تؤكد أولاً استمرارية الوجود المصري الأصيل في مصر إلى يومنا هذا، وثانياً تؤكد الأصول الجغرافيا والجينية للمصريين القدماء، والتي تشير إلى المناطق العربية تاريخياً.

ومن هنا نجيب على التساؤل حول أصل المصريين و«عرقهم» الأصلي، بأنهم قدموا إلى مصر قديماً من المناطق العربية القديمة، ومن أجزاء مختلفة من إفريقيا، وهذه نتيجة طبيعية بالنظر إلى الجغرافيا والبيئة والتي هي الحكم في موضوع الهجرات والجولان في أرض الله الواسعة. وبكلمات أوضح، يمكن القول بأن أهل الوطن العربي الكبير من المحيط إلى الخليج ينتمون إلى شعب واحد تفرع وانتشر في هذه الجغرافيا القديمة واختلط بالكثير من الشعوب الأخرى من جيران وغزاة، أي أن الأصل البشري لمصر محلي لا محالة بالنظر إلى التشابه والتشابك الجيني الكبير بين المصريين القدماء والسوريين القدماء وأهل اليمن والمغرب العربي.

تتميز الدراسات الجينية بالدقة الكبيرة من ناحية صحة النتائج في مقابل العينات الدراسية، ولكنها تعكس فقط العينات من ناحية الكم النوع ومنهج الدراسة، أي أنها تعكس النسب الجينية بحسب عدد العينات ونوعها الجندري، وفي حالة الدراسات التي تتعلق بمصر القديمة، فإن جميع الدراسات على اختلاف عدد العينات التي تتراوح بين المئات والآلاف من مصر فقط، أو من مصر وخارجها، اشتركت في النتائج بشكل كبير، ورغم هذا فإن الدراسات الجينية لا تكفي وحدها لتحديد الأصول الحضارية لشعب أو أمة ما، فهناك الثقافة واللغة وغيرها من دراسات إنسانية مختلفة.

يهرع كثرٌ إلى القول بأن لمصر خصوصية ثقافية تميزت في نواحٍ كثيرةٍ الظاهر منها هو الكتابة الهيروغليفية والممارسات الدينية والتركيز على الحياة الأخرى وتمجيد القبور، وبالتالي تميز العمارة المصرية بخصوصية تمايزت بها عن الحضارات القريبة جغرافيا وزمنياً في العراق وبلاد الشام. هذا الطرح أو الخطاب المنهجي والتاريخي يقابله خطاب أخرى يصرح بأن حضارات بلاد الشام والعراق هي حضارة الحياة وحضارة مصر هي حضارة الموت. لكنْ، وللمفارقة، وبالرغم من وجود تمايزات طبيعية بين حضارة وأخرى، كما هناك تمايز، وحتى اختلاف، بين الأخوة في البيت نفسه، فإن الممارسات والفكر الديني واليومي في مصر أم في العراق مثلاً يذهب إلى نفس السياقات والمحتوى، وينعكس على فنون العمارة

وغيرها بحسب البيئة المحيطة والحاوية. فعلى سبيل المثال، قدست جميع الحضارات في المنطقة، ومنها المصرية والشامية، الأنهر والشمس والقمر، بل وأغلب الحضارات القديمة التي نشأت على الأنهر الكبيرة في كل بقاع العالم ذهبت إلى نفس الممارسات تقريباً مع وجود تمايز واختلافات طبيعية لا علاقة لها باختلاف المنشأ دائماً.

يذهب أغلبية علماء الآثار في العالم إلى تأثير أساس للبيئة والجغرافيا على الثقافة، فالصحراء تفرض نمط حياة معين على من يعيش فيها، والجبال تفرض نمطاً مختلفاً عن الصحراء، وإن كان سكانها من منبتٍ وأصلٍ واحد، فطبيعة الإنسان التكيف وترويض الطبيعة لصالحه والتعايش معها لمصلحة الإنسانية. ففي مصر بنيت الأهرامات تخليداً وحفاظاً على الإنسان ليصل إلى الحياة الأخرى، وفي العراق بنيت القبور الملكية «الزاقورة» لنفس السبب، وتم إرفاق الجرار الفخارية في مصر مع الموتى وفي العراق أيضاً، كما في سورية وغيرها من المناطق في المنطقة وخارجها، أما المشترك الأكبر بين حضارات المنطقة فهو العنصر البشري المحلي في أغلب الحقب الزمنية.

يمكن القول بأن الخطاب الذي يحاول أفرقة مصر أو تحييدها عن محيطها العربي بأنه خطاب أوروبي استشراقي، عزز لأسباب تاريخية سياسية في فترات مختلفة من تاريخ مصر الحديث، والرد على هذا الخطاب المبني من قبل مؤسسات بحثية عملاقة يحتاج إلى جهد مؤسساتي ضخم طويل الآمد، فالحديث عن ثقافة مصرية قديمة في مصر فقط خاطئ، فالثقافة المصرية القديمة سيطرت في أغلب الحقب الزمنية على جنوب بلاد الشام وأجزاء من الساحل السوري والسودان وليبيا. الثقافة المصرية هي جزء أساسي ومكون لثقافة المنطقة العربية وليس جاراً لها كما يدعي البعض. فالاختلاف مثلاً بين الثقافة الفارسية والديانة الفارسية القديمة واضح مع ثقافات العرب القديمة، من الناحية اللغوية والدينية وغيرها، حتى بعد سيطرة الإسلام العربي على بلاد فارس لم تصبح بلاد فارس عربية، وهذا ما لا ينطبق على مصر تحديداً فمصر لم تتعرب مع قدوم الإسلام كما يدعي الوطنيون المصريون، ولم تصبح إغريقية بالرغم من سيطرة الإغريق على مصر لأكثر من 300 عام!

تتشابه الدراسات الجينية حول مصر كثيراً وبشكل لافت للانتباه مع الدراسات الجينية حول العراق وبلاد الشام القديمة، وربما تتشابك معاً بشكل غريب بحيث يصبح التمييز القومي بين الشعوب القديمة شبه مستحيل، وهنا أتحدث عن الشعب الأقدم في تاريخ المنطقة، بحسب الدراسات والسرديات الغربية، وأقصد الشعب الذي يسمى السومري. وعلى الرغم من الطرح السائد حول سومر والسومريين بأنهم مجهولو الأصل، إلا أن الدراسات الغربية أكدت أصولهم ومنبتهم. وهذا سيكون موضوع المقال القادم.

وهذه بعض من أهم وأحدث الدراسات حول الموضوع الجيني في مصر:

- «Ancestry and Pathology in King Tutankhamun’s Family» by Hawass et al. in the journal JAMA.

- The genetics of East African populations: a Nilo-Saharan component in the African genetic landscape» by Tishkoff et al. in the journal Scientific Reports.
- «Ancient Egyptian mummy genomes suggest an increase of Sub-Saharan African ancestry in post-Roman periods»
- «Tracing the peopling of the world through genomics» by Pagani et al.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 87
01 أيار 2023

من المعنى إلى الجذور: التعريف التأريخي للقومية العربية عند الدكتور عبد العزيز الدوري

إبراهيم حرشاوي

قليلة هي الدراسات والكتابات في الأوساط الأكاديمية العربية التي عالجت الظاهرة القومية قبل الفترة المعاصرة بمنهج تاريخي يجمع بين تجليات القومية وسيرورة تكوين الأمّة. ويمكن رؤية هذه الندرة بشكل جليٍ طيلة القرن العشرين عند دراسة المؤرخين العرب الذين انكبوا في إصداراتهم على تأريخ مفاهيم كالشعب العربي والثقافة العربية من أمثال فيليب حتي وألبرت حوراني ونبيه أمين فارس ونقولا زيادة وغيرهم ممن تأطروا أكاديمياً في الغرب. ويمكن اعتبار الدكتور عبد العزيز الدوري الأول ممن اهتّموا بدراسة العروبة من منظور تاريخي- قومي شامل لا كعقيدة أو تجربة سياسية في مرحلة محددة، حيث دقق في تجليات الحس القومي ضمن مجموعة من المحددات المكوّنة للأمة وتطور مفاصلها الحضارية والهوياتية عبر أزمنة متسلسلة ومتعاقبة. ومن المعلوم أنّ اهتمامات د. الدوري الأكاديمية كانت أوسع من مسألة القومية العربية، بل يعتبر في ميدان تخصصه أول الفاتحين لحقل التاريخ الاقتصادي العربي إبان الخلافة العباسية.

تظهر أول النصوص التي ناقش فيها د. الدوري القومية العربية في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، حين نشر في مجلة الآداب دراسة قصيرة بعنوان «معنى القومية العربية» (آذار / مارس 1953، العدد الثالث) عرّف فيها القومية العربية كظاهرة من ظواهر الوعي لدى الأمة التي تكوّنت بعوامل متعددة أهمها الوعي الإسلامي والوعي العربي. ويشير د. الدوري إلى بعض الفصول المتعلقة باليقظة الإسلامية في التاريخ العربي التي ساهمت في نمو الوعي العربي المتمثل- بناء على قراءته - بالشعور بالكيان والاعتزاز بالتراث والسعي إلى غربلته من كل ما يضعفه. ويعتبر الدوري في هذا الصدد ابن تيمية والكواكبي «صيحة عربية في وجه السيطرة العثمانية»، إذ عاين في رسالة الكواكبي والحركة السلفية عموماً العودة إلى الأصول العربية للإسلام باعتبار العرب أصل الإسلام وأن الإصلاح والنهضة لا يتمان إلا

بوحدتهم وأن تلك الوحدة خطوة تمهيدية نحو وحدة العالم الإسلامي. أما الوعي العربي فيستند، حسب د. الدوري، إلى حركة فكرية- ثقافية دعت إلى النهوض باللغة والأدب العربي وإلى دراسة التاريخ العربي والاعتزاز به. ويصنّف د.الدوري هذا التوجه ضمن الدائرة العلمانية بحكم طليعته المسيحية وبيئته الشامية التي جعلته يأخذ منحىً لادينياً.

وبالرغم من تأكيده على الدور الوازن للحركات الاستقلالية التي تبنت الطرح القومي العربي في مواجهة الاستعمار وبث الوعي القومي، إلا أنه لم يمتنع عن توجيه سهام النقد لها من عدة جوانب سواء لخطابها أو تركيبها التنظمي. وبالنسبة للخطاب، فقد وجّه الدوري نقده إلى طريقة تمجيد الماضي بدون معرفة أصوله أو جوهره، في حين أثار إشكالية الضعف التنظيمي الذي ينبع من التواجد المشتت للحركة القومية في أجزاء متباعدة من البلاد العربية وتصدع الحركة بممارسات انحرافية على مستوى بعض القيادات. ووفق رؤية الدوري، تتطلب المرحلة إنتاج خطاب يميّز بين ما أنتجته اليقظة العربية في سياق محدد وما بقي يؤثر في مقاييسنا وحياتنا الحالية. إضافةً إلى ذلك، دعا د. الدوري إلى دراسة التاريخ القومي العربي «لا لغرض التبجح» كما يقول، بل بغرض «فهم نفسية الأمة حسب تكوينها خلال العصور، مع فهم المؤثرات في ذلك لنستطيع توجيهها». ويثبت دعوته لإعادة النظر في التاريخ العربي بضرورة تعميق الإدراك لكيفية معالجة الأمة لمشاكل الحكم عبر عصور مختلفة وفهم الصلة بين الحاكم والمحكوم لتفادي الارتباك الناتج عن اقتباس نظمٍ في الحكم من دون معرفة جذور هذه الأمة أو تهيئة الجو الصالح لما يتم اقتباسه.

ينهي د. الدوري دراسته بفقرة يقر فيها بافتقار الحركة القومية إلى نظرة فلسفية قابلة للترجمة إلى برنامج قومي، بحيث أن تحديد خطوط الفلسفة القومية تقتضي دراسة الذات العربية من ناحية، واتخاذ موقف من التراث ومن الموجة الغربية من ناحية أخرى. ولمعالجة هذه النقطة نشر د. الدوري سنة 1960 كتاباً بعنوان «الجذور التاريخية للقومية العربية» ذكر في خاتمته أنه لا يعتبره مساهمة في تركيز المفاهيم القومية وتوضيحها على مستوى أرسخ من العاطفة فحسب، بل هو في اعتقاده دراسة ستساعد في وضع خطوط فلسفية للقومية العربية. من الواضح أن انتقادات د. الدوري في مادة «معنى القومية العربية» كانت حافزاً له للشروع في سد ثغرة التأصيل التاريخي لدى القوميين، أو بمعنى آخر أن ينتج كمؤرخ بانتماء عروبي دراسات موثقة عن تاريخ بعض المفاهيم المفصلية للقومية العربية من أجل رفع جودة خطاب التيار القومي من هذه الناحية.

وليس من باب الصدفة إذن أن ينشر د. الدوري في الستينيات من القرن الماضي ثلاثية تحت عنوان «الجذور التاريخية»: الجذور التاريخية للقومية العربية (1960)، الجذور التاريخية للشعوبية (1962)، الجذور التاريخية للاشتراكية العربية (1965). لا شك أن هذه الثلاثية أفضت بدورها إلى محطة أخرى في كتابة التاريخ القومي العربي لديه، حيث دُمجت محتويات الثلاثية جزئياً، معززة بدراسات مفصلة في كتاب «التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي» الذي صدر عام 1984. ومع أن كل العناوين المذكورة متداخلة من حيث التكامل في

ممن زعموا أنها فكرة مستوردة ومنفصلة عن التراث. إن ما يميّز قيمة الكتاب المعرفية تضمينه للحقب والسياقات العديدة للتحولات التي طالت تجليات القومية العربية عبر التاريخ العربي-الإسلامي.

على نفس المنوال صاغ د. الدوري فكرة الكتاب الثاني، «الجذور التاريخية للشعوبية»، والثالث، «الجذور التاريخية للاشتراكية العربية»، محاولاً رصد منابع العداء للعرب وتبيئة الاشتراكية العربية بتسليط الضوء على قيم العدالة الاجتماعية في التراث العربي-الإسلامي. وبهذه المعاني وفّرت ثلاثية د. الدوري بعداً تأسيسياً لبعض منطلقات الفكر القومي العربي، مع الإقرار مرة أخرى أن ما ألفه د. الدوري لا يخرج عن السياق الفكري لحالة السجال الأيديولوجي بين التوجهات الوحدوية العربية وبين التيارات الساعية لإيجاد بدائل للهوية العربية آنذاك.

بالعودة إلى كتاب «الجذور التاريخية للقومية العربية» يتضح من الفصل الأول أن د. الدوري استثنى الحضارات العربية القديمة، وأشار إليها فقط تحت مسمى الثقافات «السامية» (انظر ص.31)، أثناء تناوله الموجز للصراع الثقافي في العراق منذ القدم، مع أن تحقيبه الزمني للتاريخ العربي يعود إلى ما قبل الميلاد كما ورد في كتبه ودراساته في علم التاريخ عند العرب.

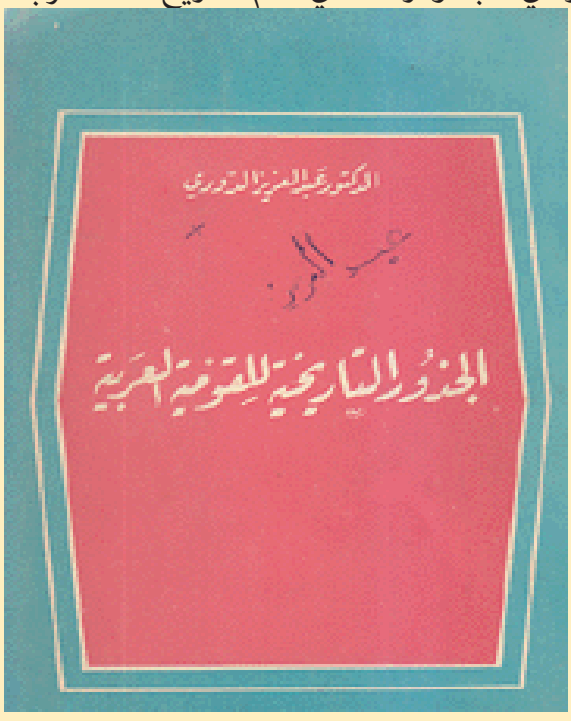

ولابد من الإشارة هنا إلى التغيّر الذي لوحظ في تناوله لهذا الموضوع في كتاب «التكوين التاريخي للأمة العربية» حيث قام بتوظيف مصطلح الشعوب العروبية لوصف الأقوام العربية القديمة التي يطلق عليهم المستشرقون صفة «السامية» لإقحامهم بالسردية التوراتية. ويبرهن موقفه في اختياره لعبارة الشعوب العروبية بما يلي: «وحين ينظر إلى تكوين الأمة العربية في التاريخ يلاحظ أن جل الشعوب التي تتكلم لغة «سامية» تعرّبت ودخلت في تكوين هذه الأمة بصورة طبيعية كما أن تراثها الحضاري دخل في تكوين الحضارة العربية. وبهذا المعنى دخلت هذه الشعوب في بنية الأمة العربية. وهذا يجعلنا نتجه إلى تسميتها بالشعوب العروبية» (انظر ص.17). ولعل القيمة النفيسة لهذا المبدأ تظهر في رسم الرقعة الجغرافية للوطن العربي انطلاقاً من وجهة نظر لغوية، حيث أقدم د. الدوري على دراسة تموقع اللغة العربية الفصحى في المجال الثقافي على امتداد هذه المساحة بالتوازي مع انتشار اللهجات العربية الوافدة من الجزيرة العربية والهلال الخصيب وهيمنتها على اللهجات واللغات العروبية القديمة، أو على الأقل التعايش معها، كما حصل في بعض مناطق المغرب العربي.

زمنياً، لو عدنا إلى البُعد التحقيبي عند د. الدوري لوقفنا على تمييزه بين مرحلتين قبل الإسلام: مرحلة الجاهلية الأولى ومرحلة الجاهلية الثانية. تبدأ المرحلة الأولى مع ظهور أول كيانات عربية جنوبية منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد وتنتهي مع سقوط الدولة التدمرية في أواخر القرن الثالث الميلادي. أما المرحلة الجاهلية الثانية فتمتد من نهاية القرن الثالث بعد الميلاد حتى ظهور الإسلام، وتتصف بتواجد كيانات حاجزة على أطراف الدول الثلاث: الساسانية والبيزنطية والحِميَريّة.

أمور كثيرة تتوقف على هذه الحقبة، بحكم أنها مرحلة فاصلة، باعتبارها المعبر المؤدي إلى الفترة الإسلامية، والتي بإمكاننا أن نراها بمثابة ذروة مرحلة الجاهلية الثانية. فمع مجيء الإسلام لم تُضَفَ على المنظومة العربية مظاهرُ فريدةٌ بدرجة القطيعة الحقيقية مع ما سبق. وقد ترددت فرضية الاستمرارية في مستهل كتاب «الجذور التاريخية للقومية العربية» مع إلمام الكاتب بموضوعات ذات صلة بالحالة الثقافية العربية في الحقبة الجاهلية المتأخرة، قبل أن يشبك أواصرها بالفترة الإسلامية والفترة العباسية وما تلاها من الفترات التحصينية للذات العربية في ظل الحكم العثماني.

وفي معالجته للفترة الإسلامية يتطرق د. الدوري إلى التحوّل الديني الذي عرفته الجزيرة العربية قبل الرسالة المحمدية بقليل، مع توجه العرب نحو التوحيد وإدماجهم إلهاً أسمى في معتقداتهم أطلقوا عليه اسم «الله»، واعتبروا آلهتهم وسطاء معه. ولا يخفى أن هذا التحول الذي جعل من الكعبة بيت الله وطد وحدة العرب، من خلال أدائهم للحج الذي أصبح من بين العناصر المعززة لهيئة الأمة المنبثقة من جديد.

ومن بين الخاصيات التي تبلورت لدى العرب أيضاً أن ذاعت لغة أدبية بينهم مكنت الشعراء من نظم قصائدهم. وظهر في السياق ذاته، بمجريات القرن السادس الميلادي الخط العربي الحالي (وجدت نقوش له قبلها بقرونٍ في الواقع)، وهو خط تطوّر عن الخط النبطي، مما يدل على الاستمرارية اللغوية والترابط بين ما هو قديم مع ما هو ناشئ.

يقف د. الدوري أمام ظاهرة الإسلام الذي أعطى للعرب رسالة روحية هيأتهم لتمتين ذاتهم كأمة ناهضة ومنحتهم قوة جذابة لاحتواء الشعوب العربية القديمة والتوسع نحو الحضارات المجاورة، وعلى وجه الخصوص البيزنطية والفارسية. وبالنسبة لمدلول مفهوم الأمّة يوضح د. الدوري أن الكلمة كانت تشمل العرب المسلمين وحدهم في البداية، ولذا يمكن الزعم أنها أمة عربية محضة. ولم يقصر تعريفه للأمة بناء على قراءته للتاريخ، بل لجأ إلى ما كتبه ابن خلدون عن الأمّة والعرب بناء على السلطة المرجعية التي يتمتع بها بصفته أول عالم اجتماع في التاريخ. ففي

دراسة تحمل عنوان: «ابن خلدون والعرب: مفهوم الأمة العربية»، أظهر د. الدوري أنّ ابن خلدون يميّز بين الأمة والملة التي تجمعها الرابطة الدينية في الأساس، وأنه اتّبع منهج الكتاب الذين سبقوه أمثال الجاحظ بالعصر العباسي الأول، وهو أن لغة الضاد هي لب الأمة العربية. ففكرة أن العرب تشكّلوا من شعوب وقبائل على أسس لغوية-ثقافية تزداد وضوحاً في التصنيفات التي وضعها ابن خلدون للعرب، وهي كالآتي: العرب العاربة والعرب المستعربة والعرب التابعة والعرب المستعجمة.

ولعل ما يعزز تصور ابن خلدون لمفهوم «الأمة» هو تأرجح مضمون هذا المفهوم بين النسب وبين العوائد والشعائر والخصائص. وطبقاً لهذه المقاربة المنفتحة في ضبط المفهوم، ينظر ابن خلدون إلى العرب بأنهم أمّة ذات مكونات خاضعة للتطور بقدر تغيّر طبيعة ظروفهم الاجتماعية والسياسية. وفي التماسه للتحولات الاجتماعية، يجد ابن خلدون أن عامل النسب كان هو العامل الأول والرابطة الأساسية عند الجيل الأول من العرب، ويقصد بذلك البدو تحديداً. أما في الأمصار والحواضر فيؤكد ابن خلدون على تقهقر عصبية النسب نتجية اختلاط القبائل ببعضها ولاحقاً مع الأعجام. ويرى د. الدوري أنّ ما جاء في الطرح الخلدوني من قراءات دقيقة حول سياق التحولات الهوياتية والاجتماعية للعرب منسجمٌ تماماً مع ما أحدثته القيم الإسلامية في محاصرة القبلية والقبيلة، ناهيك عما ترتب عن عملية التحضر وبناء دولة إمبراطورية فرضت السيادة العربية-الإسلامية داخل وخارج الوعاء الحضاري العربي.

في المقابل يلاحظ د. الدوري أن بالفترة الأموية تعمّقت لدى العرب نظرتهم الذاتية بأنهم «أمّة»، بل حتى معارضو الأمويين أطلقوا على العرب صفة «أمة»، ويستشهد كاتبنا بكلمة ألقاها قحطبة بن شبيب - وهو أحد قادة الثورة العباسية – يحرض فيها ضد «أمة العرب».

ومع توهّج الخطاب الشعوبي ونيل هذه الحركة من الفكر والثقافة العربية أصبح بموجب ذلك الدفاع عن الثقافة العربية بما فيها ثقافة الجاهلية أمراً ملتحفاً بمهمة الدفاع عن الهوية القومية. تلك بالجملة أسبابٌ حاملة على انبعاث خطاب عربي يجمع بين ماضيه وحاضره، إذ أفلح صانعو هذا الخطاب في تقديم صورة مميزة للتراث العربي مقابل أدب الفرس وإرثهم الثقافي. ويجانب المرء الحقيقة بإقرار ظهور مرجعية للثقافة العربية لأول مرة جعلت العودة إليها شرطاً أساسياً للتعرّف على عصري صدر الإسلام والجاهلية، فضلاً عن أنها مرجعية عربية لا ترى في الإسلام قطيعة مع الجاهلية باصطباغها بثوابت الهوية العربية العابرة للمراحل. لقد وعى د. الدوري أن الاشتباك مع الشعوبية زوّد بدوره مفهوم «الأمّة» باستدخال الدفاع عن العرب في الجاهلية كأحد المحددات. ولا غرابة إذن في الصلة الشديدة التي يمكن ملاحظتها بين انفتاح مفهوم الأمة على العروبة وبين التطور شبه الخطي للوعي العربي. فهذا الوعي بدأ حسب د. الدوري في الجاهلية مبهماً وحائراً، ثم ظهر باندفاع من خلال الديانة الإسلامية وحركة التعريب التي نتجت عنها ثقافة عربية شاملة بعصر التدوين، والمعروف أيضاً بالعصر الذهبي للإسلام.

وكشف د. الدوري بعد تشريحه لتطور الأمة الستار عن قاعدة ثقافية أخذت وجهة إنسانية بمسيرة التطور، وأن هذا التطّور يمتلك جذوراً راسخة تمثل بدورها الأسس الثقافية والاجتماعية للقومية العربية.

يأخذنا كل ما سبق إلى المحطة ما قبل الأخيرة، والتي عالجها د. الدوري تحت عنوان « الوعي العربي: من الصعيد الثقافي المحدود إلى الصعيد الشعبي الواسع». أما الفترة ما قبل المعاصرة فلم تكن ضمن حيز هذه المادة بحكم أنها، أولاً، فترة غنية عن التعريف، وثانياً، أن الكاتب لم يأتِ بمعطياتٍ ورؤى اضافية تميّز قراءته لهذه الفترة عن قراءات مماثلة تتمحور حول دور المثقفين العروبيين الذين خاضوا المعركة ضد سياسة التتريك بأفق يفتح الطريق نحو مشروعية الاستقلال العربي.

وليس هنالك من شك في أنّ تاريخ القومية العربية في مرحلة الانحطاط يكاد أن يكون مفقوداً، مع أن مرحلة الانحطاط تعد من المراحل الدافعة نحو اليقظة العربية المعاصرة وما تلاها من انبعاث للحركة القومية. ففي الفترة الممتدة من القرن التاسع ميلادي، التي فقد فيها الخلفاء سلطانهم على يد السلاجقة والبويهيين، إلى حوالي القرن التاسع عشر، تسلط العنصر الأجنبي، وأدى ذلك في آخر المطاف إلى انهيار أو انكماش معظم المراكز السياسية العربية. هذه حقيقة يعرفها الجميع لأنها بكل بساطة من التاريخ الموضوعي والمعروف، إلا أنّه في نفس الوقت يجب الاعتراف أن معنى الوعي القومي العربي في هذه المرحلة لم تلحظه أو تسجله معظم التأويلات التاريخية التي اهتمت بوضعية العرب طيلة الحكم العثماني، على الرغم من عشرات الثورات والانتفاضات التي قامت ضد المحتل العثماني في هذه الفترة.

ضمن هذا الغموض أراد د. الدوري أن يتفحص التمسك الهوياتي على صعيد حركة الجماهير التي درسها في منظمات العيّارين والشطّار والفتيان. ويذهب د. الدوري في اتجاه نفض الغبار عن حقيقة وقوف الجماهير إلى جانب الخلفاء لمقاومة تيار الأجانب حتى بعد الهجمة المغولية التي غمرت بغداد. وتعد في هذا الإطار تجربة الخليفة الناصر لدين الله بالقرن الثالث والرابع عشر ميلادي محورية، مع تنصيب هذا الخليفة نفسه رئيساً لحركة الفتوة، وبذلك أصبحت لأول مرة المنظمات الشعبية على صلة متينة بالسلطة. وفسر د. الدوري ذلك التحالف بإدراك العباسيين «قيمة هذه المنظمات وقدرتها في إحداث نهضة جديدة تحولّ فيها الوعي العربي إلى مكافحة الفوضى والتجزئة والطامعين الأجانب». وهكذا، فإن هذه الآليات الدفاعية النابعة من صميم الطاقات المجتمعية هي التي حكمت طريقة تعاطي العرب مع هيمنة الأتراك والموجات الصليبية. ففي قلب تلك الأحداث تشكّلت النواة الشارطة لنشوء كيانات عربية مستقلة على غرار الإمارة الشهابية التي تحالفت مع مصر بقيادة محمد علي باشا في معركة استعادة سورية الكبرى من قبضة الأتراك.

في الختام، إن تربع د. الدوري على عرش المؤرخين العرب لن يكون حدثاً مؤقتاً، فكتاباته التاريخية عن القومية العربية

ارتبطت بمرحلة متقدمة من نضوج المدرسة القومية في كتابة التاريخ العربي، وازدهرت داخل هذه المدرسة فكرة أن مختلف جوانب الوجود التاريخي للأمة العربية تكوّنت في التاريخ ما قبل الحديث وقبل تكوين القوميات في أوروبا. ولا يمكن غض الطرف عن أن هذه المدرسة نجحت بموارد من التاريخ العربي في تقويض الأطروحة الذاهبة إلى الاقتران التكويني لنشوء الأمة العربية بقيام السوق الرأسمالي والحداثة الأوروبية.

مراجع:

- عبد العزيز الدوري، معنى القومية العربية، مجلة الآداب، العدد 3، بيروت، آذار 1953.
- عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للقومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008.
- عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، بيروت، 1981.
- عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للاشتراكية العربية، مجلة الأقلام، العدد 8، بغداد، أغسطس، 1965.
- عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة السادسة، بيروت، 2019.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 87 ـــدد
01 أيار 2023

سلسلة مقتطفات الفكر القومي: دراسة التاريخ العربي

عبد العزيز الدوري

مجلة العربي، العدد 24 ، 1 تشرين الثاني / نوفمبر 1960

العرب من الأمم التي اعتنت بالتاريخ عناية خاصة، فروته وتدارسته، وجعلته جزءاً من ثقافتها العامة، وأكثرت من التأليف فيه كثرة تجلب الانتباه. وهم أمة تتحسس بالتاريخ في حياتها العامة، وفي كثير من مواقفها المهمة، ويلعب تاريخها دوراً حيويا في نظرتها للأمور، وفي كثير من علاقاتها بالأمم الأخرى.

أسباب عدة للاهتمام بالتاريخ

دراسة التاريخ العربي
بقلم الدكتور
عبد العزيز الدوري
• لا سبيل لدراسة الأمة دون فهم واع لتاريخها
• مهاجمة الشعوبيين لتاريخ العرب ودسائسهم لتشويهه
• التاريخ ليس أرضاً شاسعة لكل من أراد أن يكتبه
■ العرب من الأمم التي اعتنت بالتاريخ عناية خاصة، فروته وتدارسته، وجعلته جزءا من ثقافتها العامة، وأكثرت فيه من التأليف فيه كثرة تجلب الانتباه. وهم أمة تتحسس بالتاريخ في حياتها العامة، وفي كثير من مواقفها المهمة، ويلعب تاريخها دورا حيويا في نظرتها للأمور، وفي كثير من علاقاتها بالأمم الاخرى.
اسباب عدة للاهتمام بالتاريخ
وترجع جذور هذا الاهتمام بالتاريخ الى ظروف وعوامل عدة. فان انت تخطيت جانب المتعة والاعتزاز بالمآثر والامجاد ـ وهو جانب بشري طبيعي تجده عند العرب وتجده عند غيرهم من الشعوب، وتجده لدى البدو ولدى الحضر، ويصح أن يكون تاريخا وأن يكون مجموعة من القصص التاريخي ـ فانك تجد عوامل اخرى لهذا الاهتمام.. فقد رافق توثبهم الكبير بالاسلام تنبه لأهمية التاريخ في حياة الأمم الاخرى وسيرها، وشعور بأهمية العبرة فيما مضى، ورافقه اهتمام بسيرة الرسول وصحبه (ع) وبالمآثر الجديدة التي اكتسبوها بالتوسع والفتح. وجاءت مشكلة الخلافة فجعلت لأحداث صدر الاسلام اهمية خاصة في تفكيرهم، بل استندت اتجاهاتهم السياسية الى حد كبير الى تفسير هذه الأحداث والى تحديد دلالتها، فاهتموا بالتاريخ وتدارسوه. وبعد كل هذا ترى أن العرب كانوا يحسون بأنهم أصحاب رسالة في التاريخ، وأن هذه الرسالة تكسبهم منزلة خاصة في سير البشرية، وتتطلب منهم حفظ سجل بأعمالهم وبسيرة الأمة عامة.
١٤

وترجع جذور هذا الاهتمام بالتاريخ إلى ظروف وعوامل عدة، فإن أنت تخطيت جانب المتعة والاعتزاز بالمآثر والأمجاد ـ وهو جانب بشري طبيعي تجده عند العرب وتجده عند غيرهم من الشعوب، وتجده لدى البدو ولدى الحضر، ويصح أن يكون تاريخاً وأن يكون مجموعة من القصص التاريخي ـ فإنك تجد عوامل أخرى لهذا الاهتمام... فقد رافق توثبَهم الكبير بالإسلام تنبهٌ لأهمية التاريخ في حياة الأمم الأخرى وسيرها، وشعورٌ بأهمية العبرة فيما مضى، ورافقه اهتمامٌ بسيرة الرسول وصحبه (ع) وبالمآثر الجديدة التي اكتسبوها بالتوسع والفتح. وجاءت مشكلة الخلافة فجعلت لأحداث صدر الإسلام أهمية خاصة في تفكيرهم، بل استندت اتجاهاتهم السياسية إلى حد كبير إلى تفسير هذه الأحداث وإلى تحديد دلالتها، فاهتموا بالتاريخ وتدارسوه. وبعد كل هذا ترى أن العرب كانوا يحسون بأنهم أصحاب رسالة في التاريخ، وأن هذه الرسالة تكسبهم منزلة خاصة في سير البشرية، وتتطلب منهم حفظ سجل بأعمالهم وبسيرة الأمة عامة.

وبمرور الزمن ازدادت أهمية التاريخ واتسع دوره في حياتهم. كانوا يسمونه «الأيام» و«الأخبار» و«السير»، ثم صاروا يسمونه التاريخ. وإذا كانت لفظة «التاريخ» تعني «التوقيت» من قبل، فإنها صارت تعني سجل أحداث الماضي.

الشعوبيون يشوهـون التاريخ

وهذا الاهتمام بالتاريخ والشعور بالرسالة التاريخية، جعـل الشعوبيين يدركون دور التاريخ لدى العرب، ويركزون قسطاً كبيراً من اهتمامهم على تشويهه والدس عليه ومهاجمته. وهنا قام المؤرخون بدور حيوي في الرد على الشعوبية، رداً مباشراً من جهة، وغير مباشر من جهة أخرى، فراحوا يفسرون دور العرب في التاريخ، وراحوا يتتبعون دسائس الشعوبية، ونشطوا بصورة عامة وبروح جديدة في حقل التاريخ العربي، ليوضحوا أن العرب أمة ذات تاريخ يكوّن سلسلة متصلة الحلقات قبل الإسلام وبعده، وأن العرب حمـلوا الرسالة الحضارية لغيرهم في التاريخ.

وللتمثيل على ذلك نذكر أن البلاذري ألف (فتوح البلدان) وعبر فيه بوضوح عن دور العرب كأمة في نشر لواء الإسلام وفي خلق دار الإسلام، وعن موقفهم مـن الشعوب الأولى التي دخلت الدين فيما بعد، وكتب (أنساب الأشراف) ليبين دور الرؤساء والزعماء في التاريخ وأثرهم في تكوين الدولة العربية الكبرى. وألف ابن قتيبة (المعارف) ليبين اتصال حلقات التاريخ العربي والثقافة العربية، وليبين أهمية التاريـخ لكل مثقف. والأصمعي ألف في تاريخ العرب قبـل الإسلام ليبين أنهم أناس لهم ماض حضاري وكيان محترم حتى قبـل ظهور الإسلام.

ولعل التمهيد يبين لك أن التأليف التاريخي عند العرب وثيق الصلة بحياتهم وباتجاهاتهم العامة، كما كان جزءاً لا يتجزأ من التوثب الثقافي العام، وهذا يعني تعرض كتابة التاريخ لمختلف المؤثرات، عامة وفردية.

التاريخ نقد وتمحيص

ولنا أن نتساءل عن النظرة التي تخللت كتابة التاريخ عند العرب لنرى أكان يستند الى أساس جدي متين أو كان سبيلاً لأغراض أخرى، وأنهم اكتفوا بالسرد من دون تمحيص. ومثل هذا القول قد يصدر عن اطلاع سريع أو عابر على بعض كتب التاريخ العربي من دون محاولة جدية لفحصها. فمع أن القصص الشعبي يختلط بروايات التاريخ بشكل ملحوظ، فإن طابع الجد يسود ما وصلنا من كتب تاريخ.

وكانت للمؤرخين العرب وسائل خاصة بهـم في تدقيق الأخبار في النقد، فقيمة الخبر أو الرواية تعتمد على راويها، من ناحية جده ودقته وصدقه وصلته بالحوادث. وقد نفرض أن هذه النظرة دفعت إلى التأكد من الرواة من دون نظرٍ إلى محتوى الروايات أو متنها. ولكن دراسة الروايات الأولى تدل على أن الاهتمام اتجه مبدئياً إلى نقد متن الروايات ومقارنتها ببعضها، والإشارة إلى الروايات التي تروى من قبل رواة متعددين متباعدين.

أما نقد سلاسل الرواة فيمثل مرحلة تالية نسبياً لنقد المتن، وكان لأساليب المحدثين دورها في النقد التاريخي، ذلك لأن مدرسة المدينة في التاريخ بدأت وثيقة الصلة بالحديث كما أنها خطت بسرعة في الاتجاه النقدي، وقد ساعدها وضعها الجغرافي في الجزيرة وانتقال الصراع على السلطة خارجها إلى شمال الجزيرة على اتخاذ موقف متزن في النقد.

تجنب الاستنتاج درءاً للشبهات

ووجد المؤرخون في ضبط تواريخ الحوادث وسيلة أخرى للنقد ولتدقيق الروايات. كما أن المؤرخين أشاروا إلى الروايات الغريبة أو الضعيفة ولم يترددوا في نقدها بصرف النظر عن مصدرها. ورأوا في إيراد الروايات المختلفة سبيلاً لتقديم صورة متزنة عن الأحداث، ووضعوا التراجم للمؤرخين والرواة ليعطوا فكرة عـن نشأتهم وميولهم وظروفهم العامة، وهذا يساعد على تقدير قيمة رواياتهم. ولكن المؤرخين العرب في الغالب لم يحاولوا تحليل الحوادث أو الاستنتاج من المادة الأولية خشيةً منهم أن يكون ذلك سبيلاً للظن أو للانحراف في الرأي، واكتفوا بإيراد الأخبار بطريقة تمكن القارئ أن يحكم لنفسه، كما أن آراءهم تبدو في الانتقاء أو في قبول بعض الروايات وإهمال البعض الآخر. ودراسة المؤرخين الأولين كالطبري والبلاذري واليعقوبي وما ضمنوه كتبهم من مؤلفات الجيل الذي سبقهم من المؤرخين ـ الذين لم تصلنا كتبهم ـ تدل على اتزان وتدقيق وعلى نظرة أكثر مما يبدو لنا بصورة اعتيادية.

وانحدر التاريخ لمستوى القصص!

ولعلنا نظن بعد هذا المرض أننا ورثنا النظرات أو الأساليب التاريخية الماضية، وأن كتابة التاريخ عندنا في مطلع النهضة العربية كانت استمراراً لما سبق. ولكن الواقع يدل على تدهور واضح في مفهوم التاريخ وفي طريقة دراسته وكتابته، وذلك نتيجة فترات الركود الفكري التي مر بها العرب. فقد انحدر التاريخ إلى مستوى يقرب من مستوى القصص، وضعفت فيه وجهة النقد سـواء أكان ذلك في ضبط الرواة أو في معارضة الروايات، وفقدت دراسة التاريخ معناها وأصبح التاريخ هيكلاً أجوف.

وحين بدأ الوعي العربي الحـديث، التفت العرب إلى تاريخهم يتدارسونه ويكتبون فيه، ونظرة سريعة إلى ما كتبوه في المئة سنة الأخيرة تدل على إنتاجٍ واسعٍ يثير الكثير من التفاؤل وبعض الدهشة. وقد ازداد التأليف في التاريخ سعةً وغني باطراد النهضة العربية، وهذا طبيعي لأن نهضة الأمة وتطورها الثقافي على صلة بوعيها التاريخي، ولكننا من جهة أخرى نتساءل عن قيمة الكثير من هذه المؤلفات، وعن المفاهيم العامة لأساليب البحث التاريخي ولمعنى التاريخ، ولا بد لنا أن نبين أن مشكلة أساليب البحث تتصل بالمختصين وحدهم، في حين أن موضوع الوعي التاريخي يهم كافة أفراد الأمة من دون تمييز.

ليس كل من كتب مؤرخاً!

وأول ما نلاحظه هو أننا ما نزال ننظر إلى كتابة التاريخ على أنها أمر مشاع، أو أرض مشتركة للجميع، فلكل مثقف ولكل من يرى نفسه كذلك، أن يكتب في التاريخ، والكتابة التاريخية لا تتطلب إعداداً خاصاً ولا تستوجب اختصاصاً معيناً. ولذا فأنت تجد نسبةً ليست قليلة بين المؤلفات التاريخية صادرة عن أفراد ليست بينهم وبين الاختصاص أدنى

صلة، وهذه ولا شك حالة تستوجب الكثير من التساؤل وتؤدي إلى إعطاء صور قلقة عن التاريخ.

ويتصل بهذه النظرة الاتجاه إلى اعتبار التاريخ نوعاً من القصة، أو شيئاً قريباً من ذلك، وأنه لا يتطلب أكثر من سرد الأخبار والإكثار من ذكر الأسماء والتواريخ، من دون الإشارة إلى مصدر، ومن دون التفكير باستيفاء المواد الأولية المتيسرة والمتعلقة بالحوادث، ومن دون نقد أو تحليل، ومن دون أية فكرة تاريخية. وإذا تذكرت هذا ولاحظت أن تاريخنا يلعب دوراً كبيراً في حياتنا، وأن بعض أحداثه ما تزال حية في تفكيرنا وتصرفاتنا، أدركت المجال الواسع لتعكير التاريخ بين من ينظر نظرة عاطفية طيبة لا تستند إلى أساس، وبين من يريد الدس والتشويه وطمس معالم هذا التاريخ.

فهم التاريخ عون للنهضة

ويبدو لي أن فهم الأمة لذاتها، ومجابهتها المعضلات القائمة والاستعداد للمستقبل الذي تنشده لنفسها يعتمد إلى حدٍ كبيرٍ على فهمها لتاريخها فهماً صحيحاً، ويستند إلى دراستها لهذا التاريخ دراسة علمية صحيحة، ولا يمكن لأمة أن تجد في تاريخها سبيلاً للانطلاق وعوناً على النهضة الصحيحة من دون فهم واعٍ سليم لتاريخها.

إن هذه النظرة للتاريخ متصلة بأساليب الكتابة فيه، وبالآراء التاريخية السائدة. أما أسباب كتابة التاريخ في العربية فتتراوح بين أسلوب السرد شبه القصصي الذي ورثناه عن فترة الركود الفكري، وهو يمثل انتكاساً في الأساليب التاريخية التي سار عليها المؤرخون القدامى، وبين أسلوب البعض، وهم قلة، في محاولة تطبيق أسلوب البحث التاريخي الحديث المعروف في الغرب، والفجوة بين الأسلوبين بعيدة، وبينهما تسلسل في التدرج يظهر في الكثير من المؤلفات.

التاريخ ليس أرضاً مشاعة!

ولا يسعنا إلا أن نؤكد أولاً أن كتابة التاريخ تتطلب إعداداً وتتطلب اختصاصاً وتفرغاً، ولا يجوز أن تكون أرضاً مشاعة لكل من أراد الكتابة. ومن الصعب جداً أن يكتب التاريخ بمفهوم علمي صحيح من دون توفر هذا الاختصاص.

وإن بدأنا بهذه الفرضية، انتقلنا إلى أسلوب السرد الذي لا يستند إلى استقصاء ولا يصحبه أي تحليل ونقد ولا يمكن أن ينتج دراسة جدية، بل إنه على العكس يحيل التاريخ إلى ركامٍ ينفر منه من يحب التاريخ ومن لا يميل إليه على السواء، وأهم من ذلك أنه لا يؤدي بنا إلى التاريخ الحي الذي يساعد على فهم سيرة الأمة، ويتصل بهذا نظرتنا إلى التاريخ.

فتاريخنا، كغيره، لا يمكن أن يدرس على أنه تاريخ أفراد لاهين أو تاريخ أسر حاكمة، لأن مثل هذا الاتجاه يطمس اتجاهاته الكبرى وجوهره ويشوه وحدته واتصاله، بل إنه تاريخ أمة يزخر بمختلف نواحي الحيوية. وإذا لعب بعض الأفراد أدواراً خاصةً فلأنهم فهموا الأمة وأدركوا الاتجاهات والتيارات السائدة فيها ووجدوا في ظروفها ما مكنهم

من دورهم. وعلى كل حال، فإن الأمم هي التي تصنع التاريخ، وهي التي تكسبه وحدته وطابعه الذي يميزه. وما التبدلات السياسية التي تحدث فيه من زوال حكم وقيام آخر، وانتهاء أسرة وحلول أخرى، إلا مظهر لتبدلات عميقة في المجتمع توجب حصول هذا التبدل. ولهذا فإن فهم التاريخ يوجب على الباحث أن يدرسه باعتباره تاريخ أمة متصل الحلقات.

الطريقة السليمة لدراسة التاريخ

وهذا يتركنا مع الأسلوب الغربي في دراسة التاريخ. وهنا نستطيع أن نفصل في البدء بين وجهتين متباينتين: الأولى تبدأ دراسة التاريخ بنظرية معينة، أو بفرضيات معينة، وتحاول أن تفسر التاريخ بضوئها، وأن تجد في المواد الأولية سنداً لها. وأمثلة هذا الاتجاه كثيرة. فالبعض يأخذ بنظرية تفاضل الأجناس وينادي بتفوق جنس معين ويدرس التاريخ في ضوئها. والبعض يرى وسائل الإنتاج، وما يتصل بها من علاقات اقتصادية اجتماعية، هي الأساس في التطورات الأخرى في المجتمع، وأن التاريخ يسير وفق الديالكتيكية المادية، وليس لنا إن أردنا فهمه إلا أن نفسره على هذا الأساس. والبعض الآخر يرى أن الفكرة هي أساس التطور، وأن التاريخ يدرس على أساس ظهور الأفكار ونقيضها والتجاذب والتصادم بين الافكار. والبعض يدرس التاريخ بنظرةٍ دينية، إلى غير ذلك من نظريات.

وهذه الوجهة في دراسة التاريخ تعني أن يتخذ التاريخ وسيلة لتأييد نظريات سياسية أو اجتماعية، وبتعبير أبسط، أن تكون دراسة التاريخ وسيلةً لترويج بعض النظريات أو لدعم بعض النظم، لا أن تكون سبيلاً لفهم تطور المجتمعات البشرية.

هذه وجهة في دراسة التاريخ... أما الوجهة الأخرى فهي أن تبدأ دراستك من دون فرضية شاملة ومن دون نظرية، وأن تدرس ما لديك من مواد تاريخية ثم تكون آراءك وتضع نتائجك بعد الدراسة. وهذه هي الطريقة الحديثة في البحث التاريخي السليم.

إننا نرى في هذه الوجهة سبيلاً لفهم التاريخ وسير حوادثه، وهي تتطلب أولاً جمع المادة التاريخية التي تشمل المصادر التاريخية المكتوبة والبقايا الأثرية والوثائق والروايات، وكل ما له صلة بموضوع البحث من مؤلفات أدبية، وتتطلب ثانياً فحص هذه المواد الأولية ونقدها، وتتطلب ثالثاً التحليل والاستنتاج إضافة إلى الربط.

ويحتاج الباحث الى أن يفهم لغة مصادره، وأن يعرف المصطلحات التاريخية، وأن يستفيد من بعض الموضوعات المساعدة لدراسة التاريخ كعلم الآثار وعلم الخطوط، ومن موضوعات أخرى تتصل بطبيعة الدراسة كعلم الاقتصاد مثلاً في دراسة التاريخ الاقتصادي.

ونحن نقدر أن التوثب العربي الحديث يتطلب فهم الذات العربية، وأن تجديد الكيان العربي وبناء مجتمع عربي

سريع الحركة والتطور يستند إلى حدٍ كبيرٍ على فهمه لذاته، وعلى إدراكه لجـذوره التاريخية، ولن يتحقق ذلك إلا بالدراسة الجدية وبالبحث العلمي النزيه. فنحن لا نريد أن نبني تفكيرنا وكياننا على وجهة عاطفية رومانتيكية، ولنا الثقة بذاتنا وبدورنا التاريخي ما يجعلنا نستند إلى أسسٍ من البحث الرصين.

مصادر للتاريخ لا غنى عنها

ولكن هذا لا يعني، أن أسلوب البحث التاريخي الغربي يمكن اقتباسه وتطبيقه حرفياً في دراسة تاريخنا، لأن طبيعة المواد الأولية مختلفة. فالكتابة التاريخية عند العرب، أو مصادرنا التاريخية، اتخذت أساليب ونظرات تختلف عما تنطوي عليه مصادر التاريخ الأوروبي.

وليس هذا محل استقصاء ذلك، بل يكفي أن نذكر بعض الأمثلة، إن «مصطلح التاريخ» أو طريقة البحث التاريخي، تعتمـد على طبيعة المصادر التاريخيـة وعـلى أساليب النقد والتمحيص. ولذا فإننا حين نبحـث التاريخ العربي نحتاج إلى أن نفهم طبيعة مصادرنا في التاريخ العربي أولاً فنلاحظ، مثلاً، أننا ما نزال بحاجة إلى ضبط النصوص التاريخية، وهذا أمر فرغ منه الغربيون. ثم إننا بحاجة إلى أن نحدد مصادرنا لكتابة التاريخ، وهل هي كتب الطبقات والسير والوفيات وكتب التاريخ فقط، أم أن مجموعات أخرى مهمة تدخل ضمن مصادرنا، مثل كتب الخراج، وكتب الجغرافيين العرب، وكثير من الكتب التي تعتبر أدبية ككتب الجاحظ والتنوخي والثعالبي، وبعض كتب الفقه والفتاوى.

طريقتنا غير طريقة الغرب

وحين نتأكد من ذلك، نرجع لنميز بين نظرة مصادرنا التاريخية ونظرة المصادر الغربية: ففي حين يضع الغربيون التأكيد على ما هو مكتوب، ويكررون الحديث عن «الوثائق»، تجد مصادرنا تؤكد على راوي الخبر وناقله، ولا ترى كتابة الخبر في البدء إلا سبيلاً لإعانة الذاكرة، فالتأكيد ينصب على المؤرخ لا على الكتاب. ومعنى هذا أن المصطلح التاريخي الغربي لن يمكننا من مجابهة كثير من مشاكلنا. ثم إن مؤرخينا يختلفون في أساليبهم ونظراتهم، فهم بين راوية، وإخباري، ومؤرخ، ونساب، ولغوي، ولكل صنفٍ أسلوبه ونظرته التاريخية، ويلزمنا أن نفهم كلاً عـلى حدة، ومتى انتهينا من هذه المرحلة، نعود لنسأل: هل روى هـذا المؤرخ أخباره شفاهاً، أو استعان بالكتابة؟ وهل أخذ من مصادر مكتوبة أم لا؟

عناصر لا بد منها

وفي دراسة التاريخ العربي نحتاج إلى معرفة مفهوم العرب للتاريخ، وإلى ما لديهم من نظرات تاريخية، وإلى الدوافع التي دفعتهم للكتابة التاريخية، وإلى الصلة بين تطور «التاريخ» وبين التيارات العامة، ثقافية وغيرها. كل هذا يعني

أننا بحاجة إلى أن ندرس تاريخ «التاريخ» عند العرب، وأن نكتب في ذلك لتنوير دارسي التاريخ وتيسير مهمتهم. ولن يغنينا عن ذلك دراسة الكتب الغربية في تاريخ علم التاريخ، لأنها تقتصر على علم التاريخ الغربي، ثم أننا نحتاج إلى نوعٍ خاصٍ من العلوم المساعدة عند دراسة التاريخ العربي، فمثلاً يهمنا أن ندرس علم الحديث، «ومصطلح الحديث»، وأن نتفهم أهمية المعاجم اللغوية في التعبير عن المعاني التاريخية للكلمات وتطورها، وأن نفحص الصلة بين التاريخ والقصص.

من كل هذا يتضح أننا نريد أسلوباً في البحث التاريخي يناسب دراسة التاريخ العربي، نستفيد في تكونه من «مصطلح التاريخ» الغربي، ومن تفهم طبيعة مصادرنا التاريخية، لنتمكن من دراسة تاريخنا دراسةً علمية، فلا نقتبس المصطلح الغربي كما هو، ولا ندع الطريقة الراكدة التي خلفتها الفترة المظلمة تقف في سبيلنا، بل نكوّن مصطلحاً حديثاً يناسب التاريخ العربي. ومثل هـذا المصطلح التاريخي سيساعد من دون شك على تكوين وعي تاريخي يستند إلى فهمٍ سليمٍ لتاريخنا، ويكون سبيل انطلاق وعامل دفع إلى الأمام في نهضتنا القومية الشـاملة.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 87
01 أيار 2023

الصفحة الثقافية:

أصباغ ومشارط: كيف يتم العبث بالتراث السينمائي الأمريكي؟

باسل الخطيب *

«نحن جميعاً أوصياء على ثقافتنا التي لا تحدد فقط من نحن الآن، بل من كنا في الماضي. إن أولئك الذين جاهدوا طيلة حياتهم من أجل إنجاز أعمال فنية متكاملة يتطلعون اليوم إليكم للحفاظ على هذه الأعمال بالشكل الحقيقي لها، أعتقد أننا نملك الحق بذلك...»

كانت هذه كلمات المخرج الراحل جون هيوستن. بعث بها بواسطة رسالة مسجلة على شريط فيديو إلى الكونغرس بعد أن حال مرضه العضال دون سفره للمثول أمام اللجنة المختصة التي شكلت لمناقشة قضية ما تزال تشغل الرأي العام الأمريكي.

في تشرين الثاني عام 1986 عقد جون هيوستن مؤتمراً صحفياً شجب فيه قيام شركة تيرنر بتلوين فيلمه (الصقر المالطي) الذي أخرجه عام 1941، وهو الفيلم الأهم في مسيرته الإخراجية. الحقيقة التي يجدها السينمائيون الأميركيون مثيرة للسخرية هي أن الولايات المتحدة التي احتضنت صناعة السينما، ما تزال الدولة الوحيدة في العالم الغربي المتحضر التي لم تعترف بعد بحقوق السينمائيين الأدبية والمعنوية. لقد انضمت الولايات المتحدة إلى معاهدة برن (المعاهدة الأقوى في العالم، والمتعلقة بحقوق الملكية الأدبية) في عام 1989 فقط، أي بعد حوالي قرن تقريباً من إعلانها. وكان الدافع الأساسي للانضمام إليها، محاولة إيجاد حل لمشكلة المليار دولار التي تخسرها الشركات الأميركية سنوياً بسبب قرصنة الفيديو وبرامج الكمبيوتر في العالم.

أما الدافع الأساسي في عدم الانضمام للمعاهدة منذ بدايتها، فلأن الولايات المتحدة لم ترغب في فتح ملف حقوق الملكية الأدبية. وحتى بعد قيام الكونغرس عام 1990 بتصديق البند المتعلق بحماية حقوق الرسامين والنحاتين والمصورين الفوتوغرافيين والحفاظ على أعمالهم من التغيير والتشويه، بقي السينمائيون وحدهم بلا حقوق أدبية، وبقيت أعمالهم عرضة لكل أنواع التجارب التكنولوجية. فالسينمائيون الأميركيون يعملون «بالأجرة»، ووفقاً للقانون الأميركي فإن كل من يعمل بالأجرة يملك حقاً بالحصول على أجره والضمان الصحي أثناء قيامه بالعمل، ولكن ما إن ينتهي هذا العمل حتى تعود ملكيته بالكامل للشركة المنتجة وتتلاشى أية حقوق ممكنة للسينمائي، لدرجة أن القضاء نفسه لا يعود يعترف حتى بوجود هذا الإنسان، فكيف إذاً بحق أدبي يطالب به!

كيف يتم العبث بالتراث السينمائي الأميركي؟

أولاً: حتى يصبح ممكناً عرض فيلم سينمائي، مخصص أساساً للعرض على شاشة كبيرة مستطيلة، على التلفزيون بشاشته الصغيرة والمربعة، لجأت الشركات إلى تقنية تدعى (بان وسكان)، بحيث يتم اختيار خمسين بالمئة من مساحة اللقطة وفقاً لما تراه الشركة مناسباً، وتلغى الخمسون بالمئة الأخرى فلا يراها المشاهد أبداً، مع العلم أن القسم الملغى قد يكون الأهم، وقد يتضمن المعلومات الأساسية للفيلم، وهكذا تسقط من الشاشة وجوه الممثلين وأحداث كاملة ويضيع التشكيل، وبالتالي تتأثر لغة الفيلم ومعناه ويشاهد الجمهور «نصف فيلم»، ومع أنه تم في مرحلة لاحقة إيجاد تقنية جديدة تدعى (ليتربوكسينغ) يمكن بواسطتها عرض اللقطة كاملة ولكن مع وجود خطين أسودين عريضين في الأعلى والأسفل بحيث يستطيع المشاهد متابعة الفيلم من دون أن يضيع شيئاً من تفاصيل اللقطة، إلا أن الشركات المعنية ما تزال مصرة على تقنية (بان وسكان) زاعمة بأن الجمهور لا يفضل متابعة الأفلام بطريقة (ليتربوكسينغ)، غير عابئة بما سيلحق بالفيلم وصانعه من الضرر والإحساس بالإهانة.

ثانياً: في فيلم (ما الخطأ في هذه الصورة؟)، والذي يتحدث عن عمليات التشويه التي تمارسها شركات الترفيه على روائع السينما الأميركية الكلاسيكية، يتساءل الممثل جاك ليمون: لماذا لم يفكر أحد بتلوين صورة لينكولن الشهيرة التي التقطها أحد مصوري الحرب الأهلية؟ ولماذا يعمدون إلى تلوين الأفلام الكلاسيكية الأميركية؟ هذه الأفلام التي

اختار مخرجوها، انطلاقاً من وجهات نظر فنية، أن يصوروها بالأبيض والأسود. اليوم تقوم شركات الترفيه بتلوين هذه الأفلام ضاربةً بعرض الحائط جهود الذين عملوا على إنجازها، والذين أخذوا يشهدون بأم أعينهم كيف تتم إهانتهم علناً عبر التشويه الفظيع لأفلامهم وأفكارهم، ويخشى البعض أن يطال هذا العبث مستقبلاً جوانب أخرى من الفيلم، كأن تستبدل موسيقى الروك بالشريط الموسيقي لفيلم (ذهب مع الريح) مثلاً...

ثالثاً: تلجأ بعض الشركات اليوم إلى تسريع عرض الفيلم من خلال عملية تدعى (ضغط الزمن) يتم خلالها اختصار الزمن الفعلي للفيلم، وذلك ليلائم الوقت المخصص للعرض تجارياً في محطات التلفزيون. في حالات أخرى، يتم حذف مشاهد كاملة بشكل اعتباطي وبدرجة من الاستهزاء بحيث ينتهي الفيلم في منتصفه أحياناً. إن المشاهد التي تطلب تحقيقها في الماضي جهوداً مضنية من قبل المخرج والممثلين والفنيين، من أجل العثور على الإيقاع الصحيح بكل ما تتضمنه هذه المشاهد من حوار ووقفات وتأملات لأهم ممثلي السينما في العالم، كل هذه المشاهد أصبحت عرضة للتشويه والإلغاء لأهداف تجارية بحتة.

رابعاً: التقنية الأخطر تدعى (مورفي). وهذه التقنية تتيح إمكانية محو أي شيء من اللقطة، ووضع شيء آخر مكانه، كل هذا أصبح ممكناً بواسطة الكمبيوتر والأجهزة الرقمية. أي أنه يمكن على سبيل المثال إعادة عرض فيلم (المواطن كين)، كما أخرجه أورسون ويلز، ولكن من دون أن يكون ويلز بطل الفيلم، وإنما أي ممثل آخر. هذه التقنية توفر الإمكانية لتغيير التاريخ بأكمله في الفيلم، بحيث يصبح العثور على الحقيقة في السينما أمراً مستحيلاً؟!

ومن أجل الوقوف في وجه هذه الشركات الضخمة التي ما تزال تجري تجاربها المختلفة على التراث السينمائي، أنشئت عام 1989 في لوس أنجلوس مؤسسة حقوق الفنانين، وهي مؤسسة ثقافية وخيرية تهدف، أولاً، إلى إطلاع الرأي العام على أهمية الحفاظ على هذا التراث، باعتبار أن الفيلم السينمائي هو الشكل الخاص والمميز للفن الأميركي في القرن العشرين، وثانياً، إلى المطالبة بحقوق أدبية واضحة لصناع الفيلم، بحيث لا يتم التصرف بأفلامهم من دون موافقتهم. وتضم المؤسسة أسماء لامعة مثل مارتن سكورسيزي، سيدني بولاك، أوليفر ستون، جورج لوكاس، ستيفن سبيلبرغ، ميلوش فورمان، كيفن كوستز، جاك نيلسون، أنجليكا هيوستن، هاريسون فورد، داستن هوفمان، وغيرهم... كل هؤلاء سينمائيون يعيشون اليوم نجاحات مبهرة، ومع ذلك فهم معنيون بالحفاظ على هذا التراث.

إن التقدم التكنولوجي أمر رائع ولا حدود لإمكانياته، وكأن هذا التقدم يسر بآذان المخرجين أن تخيلوا مشاهدكم كما تشاؤون ولا تضعوا حدوداً لمخيلتكم لأن التكنولوجيا قادرة على تنفيذ كل شيء، لكن لهذا التقدم جانبه الآخر السلبي، ويجب محاربة سوء استخدامه.

في فيلم (ما الخطأ في هذه الصورة؟) يقول جاك ليمون: « لقد تم اختصاري وتلويني وإلغائي من دون أن يؤخذ برأيي. لم يعد الفيلم موروثاً ثقافياً، بل أصبح ملكية خاصة للمنتج! لقد وهبت حياتي للسينما، وأفلامي هي رصيدي

في الحياة. دعوا أفلامنا بسلام لتبقى تراثاً رائعاً لأبنائنا وأبناء أولئك الذين يعبثون بها... إن هذه التغيرات تعنينا لأننا معنيون بفننا ولغتنا وتاريخنا... إنها مخاطرة حقيقية: التعتيم على ماضينا وحاضرنا، والتنازل عن مستقبلنا».

ويؤكد مارتن سكورسيزي على موقف المؤسسة في تقرير ألقاه أمام الكونغرس بهذا الشأن : «قد يتساءل الناس عن سبب تشددنا في هذه الأمور؟ الحقيقة إن كل ما يحدث الآن يغوص عميقاً في روح بلادنا وتراثنا الذي نشعر تجاهه بالفخر والحب... ».

عندما سئل جون هيوستن عن سبب هزيمة الرجال في الحياة أجاب: «ربما يهزم الرجال في حياتهم لأنهم يصنعون لأنفسهم تماثيل مزيفة ويحاولون الحصول على أشياء ليست لها قيمة». لم يحاول هيوستن خلال مسيرته كمخرج أن يصنع تمثالاً مزيفاً لنفسه، ولم يحاول الحصول على أشياء ليست لها قيمة، ومع ذلك فقد بدا في رسالته المسجلة، والتي توفي بعد تسجيلها بعام تقريباً، وتضمنت موقفه مما يحدث لأفلامه، بدا شيخاً مرهقاً ومهزوماً يحاول أن يبقى متماسكاً... فليس هناك أصعب من أن يعيش الإنسان حياته من أجل قضية ما، ويأتي آخرون ليعبثوا بها.

* (مخرج تلفزيوني وسينمائي، وعميد المعهد العالي للفنون السينمائية في دمشق)

قصيدة العدد:

قصيدة الشهداء للشاعر القروي (رشيد سليم الخوري)

خيرُ المطالع تسليمٌ على الشُّهدا ... أزكى الصلاةِ على أرواحهم أبدا

فلتنحنِ الهامُ إجلالاً وتكرمةً ... لكل حرٍّ عن الأوطان مات فدى

يا أنجمَ الوطن الزهرَ التي سطعت ... في جوِّ لبنانَ للشعب الضليل هدى

قد علقتكم يدُ الجاني ملطخةً ... فقدست بكم الأعوادَ والمسدا

بل علقوكم بصدر الأفقِ أوسمةً ... منها الثريّا تلظى صدرها حسدا

أكرم بحبلٍ غدا للعرب رابطةً ... وعقدةٍ وحدت للعرب معتقدا

وأنتمُ يا شبابَ العرب يا سنداً ... لأمةٍ لا ترى في غيركم سندا

ناشدتكم بدماءِ الأبرياء ألا ... لا تُهدَرَنَّ دماءُ الأبرياء سُدى

تلك الجبابرةُ الأبطالُ ما ولدت ... للمجد أمثالَهم أمّ، ولن تلدا

للهِ أروعُهم، كالنارِ متّقدا ... يبغي حياض الردى بالنار مبتردا

يقبّل الجرحَ لو لم يغرِهَ طمعٌ ... بغيره ما تمنّى أنّه ضُمِدَا

تعريفٌ بالقصيدة: أربعة من القرون العجاف، حافلة بالظلم والذل والقتل والتنكيل، أبعدت العرب عن ركب الحضارة لقرون تالية، توجها العثماني بإعدام الأحرار العرب في ساحات لبنان ودمشق في السادس من أيار عام 1916، لم تشفع لأبطالنا جراءتهم، ولم تُخجِل كلماتُهم الأخيرة أعوادَ المشانق التي نصبت في الليل لتستقبل خيوط الفجر مع سيل من دماء، لم يعرف الجلادون حينها أن ما سال، ما هو إلا حبر أحمر قانٍ سيكتب نهاية لأحد أقذر وأكثر الاحتلالات دموية ووحشية في التاريخ.

زادت مراكب الشهداء واحداً، وأنار اثنان وعشرون قمراً جديداً السماء، وبعد قرن ونيف من الجريمة، نستذكرها كأنها اليوم، تشخص فينا عيون الضحايا-الأبطال لتذكرنا أن عدو الأمس ما برح، وأن الجلاد ما زال حياً، ألا فلنعتبر.

قصيدة «الشهداء» للشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) هي غيض من فيض القهر والغضب الذي اعتمر قلوب العرب الشرفاء، فألهب قرائح الشعراء الذين انبروا لفضح جرائم العثمانيين والدعوة إلى الثأر والحرية من براثن المحتل الغاصب في كل بقعة من الوطن الكبير.

كاريكاتور العدد:
أردوغان وميليشياته

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي